الرَّسائل المنهجيَّة للدَّعوة السَّلفيَّة (١)

لماذا اخترتُ المنهجَ السَّلفيَّ؟

بقلم

سليم بن عيد الهلالي

دار أهل الحديث

سلسلة (إنَّها السنَّة) ... (٣)

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

لماذا اخترت المنهج السّلفيّ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الرّسائل المنهجيّة للدّعوة السّلفيّة (١)

لماذا اخترت المنهج السّلفيّ؟

تأليف:

سليم بن عيد الهلالي

دار أهل الحديث

سلسلة (إنّها السّنّة) ... (٣)

الطبعة الأولى 1419-1999

رقم الايداع
١٩٩٩/١/٩٤٥

رقم التصنيف	٩١١
المؤلف ومن هو في حكمة	سليم بن عيد الهلالي
عنوان الكتاب	لماذا اخترت المنهج السلفي
الموضوع الرئيسي	الديانات العقيدة الاسلامية
رقم الايداع	١٩٩٩/١/٩٤٥

بيانات
* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار اهل الحديث

الموقع على الانترنت

AL-Athary@hotmail.com

هاتف (مؤقّتاً) 00962/2/7407954

فاتحة القول

إنّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُهُ، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونَعوذُ باللهِ من شُرورِ أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يَهده اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فَلا هاديَ له.

وأشهدُ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريكَ له.

وأشهدُ أنَّ مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الأمّة الإسلاميَّةَ ضاعت على مُفترقِ الطرقِ؛ فهي تَعيشُ حياةَ التّيه الَّتي لم يَشهدْ التاريخُ الإسلاميُّ لها مَثيلاً رَغمَ ما مرَّت به من أزماتٍ كَثيرةٍ، وحلَّت بها نكباتٌ مُتلاحقةٌ في لَحَظاتٍ من الضَّعفِ والبُعْدِ عن حِمى اللهِ الوَثيق؛ فكانَ المُسلمونَ يَفقدونَ جُزءاً من ديارِهم، أو قسماً من أموالِهم، أو يَعيشونَ حالاتِ قَلقٍ، ولَحَظاتِ فَزعٍ، وساعاتِ خوفٍ وترقبٍ.

لكنْ لا يَشكُّ مُستبصرٌ بسننِ اللهِ في التّغييرِ أنَّ الدائرةَ سَتكونُ على أعدائِهم؛ فقد كانَ رائدُهم في ذلكَ: «**نحنُ قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلام فإذا ابتغينا العزَّةَ في غيرِهِ أذلَّنا اللهُ**».

ولذلكَ سُرعان ما يُحاسبونَ أنفسَهم فيدركونَ العللَ، ويَتنبَّهونَ إلى الخللِ؛ فيستأنفونَ العملَ سَريعاً في مرحلةِ العودةِ إلى دينِهم؛ فيرفعُ اللهُ الذُّلَّ عنهم، وتقوى شوكتُهم، وتهبُّ ريحُهم صَباً بعدما كانت دبوراً.

أما وقد نشأَ في الإسلامِ من لم يَعرفْ الجاهليّةَ؛ فقد نُقضت عُرى الإسلامِ عُروةً عُروةً، وكلَّما نُقصت عُروةٌ تمسَّكَ الناسُ بالَّتي تَليها.

إنَّ الظُّلمةَ الَّتي تَلفُّ واقعَ الأُمةِ الإسلاميّةِ اليومَ أدهى وأمرّ، ولكنّي على بينةٍ من ربي أنَّها ستنقَشِعُ وتمرُّ - بإذنِ اللهِ وحدَه.

ولذلكَ ينبغي علينا أن نَرى هذا الواقعَ بنظرةِ الإسلامِ إليه، وتحديد الأسبابِ

الَّتي أدت إليه، ثمَّ استشرافُ المنهجِ الحقِّ الَّذي لا يَصلحُ آخرُ هذهِ الأمةِ إلّا به؛ لأنَّ أوَّلها صلُحَ به، واللهُ الموعدُ؛ فعليهِ اعتمادي وبه ثقتي واستنادي.

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

واقع الأمةِ الإسلامية ونبوءات الصَّادِق المَصدوق

ظهرت في واقع الأمةِ الإسلاميّةِ سَكرتانِ جَعلَتاها تفقدُ تَوازنَها؛ فتأرجحُ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ حتَّى خَرجَ فِئامٌ منها إلى بُنيّاتِ الطريق.

● **الأولى: حالةُ الوَهْن.**

وهذه الحالةُ وردت الإشارةُ إليها، والتنبيهُ عليها صريحةً دونَ لَبْسٍ، واضحةً دونَ غُموضٍ، مُدويةً دونَ ضَجيجٍ - يُثيرُ النَّقعَ فيحجبُ الرؤيةَ - في حديثِ ثوبانَ رضي اللهُ عنه مولى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«يُوشكُ أن تَداعى[1] عَليكم الأُممُ؛ كما تداعى الأكلةُ[2] إلى قَصْعَتِها[3]».

فقالَ قائلٌ: أَوَمِن قِلَّةٍ نحنُ يومئذٍ؟

قالَ: «بل أنتم يَومئذٍ كَثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ[4] كغثاءِ السَّيلِ، ولينزعنَّ[5] اللهُ من صُدورِ عدوِّكم المهابةَ[6] منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قُلوبِكم الوَهنَ[7]»

قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما الوَهنُ؟

قالَ: «حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ»[8]

---

(١) تتابعَ واجتمعَ؛ أي: يَدعو بعضُها بعضاً، فتُجيب.
(٢) جمع آكل.
(٣) وعاء ضَخمٌ يؤكلُ فيه، ويُبْردُ، ويشبعُ العشرة.
(٤) ما يَجفُّ فوقَ السيلِ مّما يَحملُه الزَّبدُ من الوسخ وفُتاتِ الأشياءِ الَّتي على وجهِ الأرضِ.
(٥) يَخرجُ، وأصلُ النزعِ: الجذبُ والقلعُ.
(٦) الإجلالُ والمَهابةُ.
(٧) الضعفُ في العملِ والأمرِ
(٨) **صَحيحٌ بطرقِهِ** - أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) من طَريقِ ابن جابرٍ حدَّثني أبو عبدِالسلامِ عنه به مَرفوعاً. =

وهذا الحديثُ - الَّذي يشخِّصُ حالة الوهن - يُلقي بظلالٍ ظَليلةٍ، ويوحي بدلالاتٍ ثقيلةٍ على واقعِ الأمةِ الإسلاميّةِ.

□ **أولها**: أنَّ أعداءَ اللهِ من جُندِ إبليسَ وأعوانِ الشيطانِ يَرصدونَ نموَّ أُمةِ الإسلامِ ودولتَها حيثُ رأوا أنَّ الوهنَ دبَّ إليها، والمرضُ نَخرَ جسمَها؛ فوثبوا عليها، وكَتموا البقيّةَ الباقيةَ من أنفاسِها.

ولم يَزل الكفارُ ومشركو أهلِ الكتابِ يَقومون بذلكَ منذُ فجرِ الإسلامِ، حيثُ دولةُ الإسلامِ الفتيّةُ الّتي أرسى أركانَها وأشادَ بُنيانَها رسولُ الله ﷺ في المدينةِ النبويّةِ وما حولَها.

وقد جاءَ هذا الأمرُ صَريحاً في حديثِ «الثّلاثةِ الّذين خُلِّفوا[١]» كما قالَ كعبُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه:

«... بينَما أنا أمشي في سوقِ المدينةِ إذا نَبَطيٌّ[٢] من نبطِ أهلِ الشامِ ممّن قَدمَ بالطعامِ يَبيعه بالمدينةِ يقول: من يَدلُ على كعبِ بنِ مالكٍ؟

فطفقَ الناسُ يُشيرونَ له حتّى جاءَني فدفعَ إليَّ كتاباً من ملكِ غسّان، وكنتُ كاتباً، فقرأته فإذا فيه: «**أمّا بعدُ؛ فإنّه قد بَلَغنا أنَّ صاحبَكَ قد جفاكَ، ولم يَجعلك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضيعةٍ فالحق، بنا نُواسِكَ**».

= قلتُ: هذا إسنادٌ لا بأسَ به في المُتابعاتِ؛ ابنُ جابرٍ هو عبدالرّحمن بن يَزيد بن جابر ثقةٌ، وشيخه أبو عبدالسلام هو صالحُ بن رُستم الدّمشقيُّ؛ كما في «الكاشفِ» للحافظِ الذهبيِّ (٢ / ١٩)، ولكنَّ الحافظَ ابنَ حجرٍ فرَّقَ بينَهما في «التقريبِ»، وهو على جَميعِ أحوالِهِ يُعتبرُ به.

وقد تابعَه أبو أسماءَ الرحبيُّ عن ثوبانَ

أخرجه أحمدُ (٥ / ٢٧٨)، وأبو نُعيم في «حليةِ الأولياءِ» (١ / ١٨٢) من طَريق المُباركِ بنِ فضالةَ ثنا مَرزوقٌ أبو عبدِاللهِ الحمصيّ: أنا أبو أسماءَ الرحبيّ عنه به.

قلتُ: هذا إسنادٌ حسنٌ رجالُه ثقاتٌ غيرُ المُباركِ بنِ فضالةَ؛ فإنّه صَدوقٌ، وإنّما يُخشى من تَدليسِه، ولكنّه صرّحَ بالتحديثِ؛ فَثبتت هذه المُتابعةُ، وبها يصحُّ الحديثُ، وللهِ الحمدُ والمنّةُ على الإسلامِ والسنّةِ.

(١) متفقٌ عليه، وقد استنبطت فوائدَه، واستخرجتُ دلالاتِه حتّى بَلَغت مائة ونيفاً في جزءٍ مفردٍ سمّيتُه: «إتحافُ السالك بذكر فوائد حديث المخلّفين من رواية كعب بن مالك».

(٢) هو الفلاحُ، سُمي بذلكَ؛ لأنّه يستنبطُ الماء.

فتأمَّل أيها المسلمُ اللَّبيبُ، وتدبَّر أيُّها الأخُ الحبيبُ، كيفَ يَرصدُ الكفارُ المُحيطونَ بدولةِ الإسلامِ أخبارَها، حتَّى إذا سَنَحت فرصةٌ تَواثَبُوا عليها من أقطارِها، يوضحه:

□ **الثانيةُ**: أنَّ أممَ الكفرِ تَدعو بعضَها، بعضاً وتجتمعُ للتآمرِ على الإسلامِ ودولتِهِ، وأهلِهِ، ودُعاتِهِ.

ومن قرأ تاريخَ الحملاتِ الصّليبيّةِ، وعرفَ خَبايا الحربِ الكونيّةِ الأولى؛ حيثُ جيَّشَ بنو الأصفرِ جيوشَهم للقضاءِ على دولةِ الخلافةِ، استبانت له هذه الدلالةُ وُضوحَ الشمسِ في رائعةِ النهارِ.

وحتَّى يَتمَّ لهم ذلكَ فقد أسسوا «**عُصبةً**»، ثمّ «**هيئةً**»، و «**مجلساً**»، ثمَّ «**نظاماً عالميّاً جديداً**»، يلهبُ سعارَهم طمعٌ وجشعٌ؛ يوضِّحه:

□ **الثالثةُ**: أنَّ ديارَ المسلمينَ منبعُ خيراتٍ وبركاتٍ، تُحاولُ أممُ الكفرِ الاستيلاءَ عليها، ولذلكَ شبّهها الرَّسولُ ﷺ بالقصعةِ المملوءةِ بالطيّبِ من الطعامِ الَّتي أغرت الأكلةَ؛ فتواثَبوا عليها، كلٌّ يُريدُ نصيبَ الأسدِ.

□ **الرَّابعةُ**: أنَّ أُممَ الكفرِ أكلت خيراتِ المُسلمينَ، وسرقت ثرواتِهم بلا مانعٍ ولا مُنازعٍ، وتناولَتها عفواً وصفواً.

□ **الخامسةُ**: أنَّ أُممَ الكفر صيَّروا بلادَ المُسلمينَ جُنوداً مُجنّدةً، ودُويلاتٍ مُتقاطعةً؛ كما في حديثِ عبدِالله بنِ حوالة رضي اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«ستجنّدونَ أجناداً؛ جنداً بالشامِ، وجنداً بالعراقِ، وجنداً باليمنِ».

فقلتُ: خِرْ لي يا رَسولَ اللهِ!

قالَ: «عليكم بالشامِ، فمن أبى فليلحق بيمنِهِ، وليستقِ من غُدره[1]، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تكَفلَ لي بالشامِ وأهلِها».

قالَ رَبيعةُ: فسمعتُ أبا إدريسَ الخولانيَّ يُحدّثُ بهذا الحديثِ ويقولُ: ومن

(١) جمع غدير، وهو القطعةُ من الماءِ يُغادرُها السيلُ، والمرادُ: أن يَشربَ من ماءِه.

تكفَّلَ اللهُ بهِ فلا ضَيعةَ عليه(١).

أليسَ هذا واقعُ الأمةِ الإسلاميّة؛ دويلاتٌ ليسَ لها من الأمرِ شيءٌ، وليسَ لها في توجيهِ شؤونِها الداخليّةِ أو الخارجيّةِ أمرٌ أو نهيٌ، وإنَّما تستمدُّ قوّتَها وحمايتَها وسياستَها من أَمَمِ الكفرِ، فاللهُ المُستعانُ، وعليه التكلانُ.

□ السادسة: أنَّ أممَ الكفرِ لم تَعُد تَهابُ المُسلمينَ؛ لأنَّهم فَقدوا مهابتَهم بينَ الأممِ، والَّتي كانت ترجفُ لها أوصالُ أممِ الكفرِ، وترتعدُ منها فرائصُ حزبِ الشيطانِ؛ لأنَّ سلاحَ الرُّعبِ الفتّاكِ لم يَعد يملأُ قلوبَ الكافرينَ، ويُزلزلُ حصونَهم.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿سنلقي في قُلوبِ الَّذين كَفروا الرُّعبَ بما أشركوا باللهِ ما لم يُنزّلْ به سُلطاناً﴾ [آل عمران: ١٥١].

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نُصرتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهرٍ»(٢)

وهذه الخصوصيّةُ تتعدّى إلى الأمةِ الإسلاميّةِ بدليلِ قولِهِ ﷺ في حديثِ ثوبانَ الآنفِ: «ولينزعنَّ اللهُ من صُدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم».

□ **السابعةُ** : عناصرُ قوةِ الأمةِ الإسلاميّةِ ليسَ في عَدَدِها وعُددِها، وخيلِها، ورجلِها، بل في عقيدتها ومنهجِها؛ لأنَّها أُمّةُ العقيدةِ وحاملةُ لواءِ التوحيدِ.

ألم تسمع قولَ رسولِ اللهِ ﷺ يُجيبُ السائلَ عن العددِ:

«بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ»؟

وتأمّل درسَ حُنينٍ تجدُه ماثلاً في كلِّ عصرٍ: ﴿ويومَ حُنينٍ إذ أَعجبتكُم كَثرتُكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً﴾ [التوبة: ٢٥].

---

(١) صحيح، وله عدّةُ طرقٍ بينها شيخُنا أبو عبدِالرّحمنِ الألبانيُّ - حفظه اللهُ - في «تخريجِ أحاديثِ الشام ودمشق».

(٢) أخرجه البخاريُّ (١ / ٤٣٦ - فتح)، ومسلمٌ (٥٢١) من حديثِ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضي اللهُ عنه.

□ **الثامنة**: أنَ الأمةَ الإسلاميّةَ لم يعد لها وزنٌ بينَ أمم الأرضِ كما أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ولكنّكم غثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ**».

وهذه الدلالةُ تُلقي بظلالِها الآتية:

أ – أنَّ الغثاءَ الّذي يَحملُه السَّيلُ العرمُ يسيرُ معهُ مَحمولاً مع تياره، وهكذا أُمةُ الإسلامِ تجري مع تيارِ أمم الكفرِ حتَّى لو نَعقَ بهيئةِ «اللّممِ» غُرابٌ، أو طنَّ في مجلسِ «الفتنِ» ذبابٌ لخَروا على ذلكَ صُماً وعمياناً، وجعلوه كتاباً مُحكماً وتبياناً.

ب – أن السيلَ يحملُ زبداً رابياً لا ينفعُ النّاسَ، وكذلكَ أمةُ الإسلامِ لم تعد تُؤدّي دورَها الّذي به تبوّأت مقدمةَ الأممِ، وهو الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ.

ت – أن الزبدَ سيذهبُ جفاءً، ولذلكَ سيبدّلُ اللهُ مَنْ تولّى، ويُمكّنُ للطّائفةِ الّتي تنفعُ النّاسَ في الأرضِ.

ث – أنَّ الغُثاءَ الَّذي يَحمله السَّيلُ خليطٌ من قاذوراتِ الأرضِ وفُتاتِ الأشياءِ، وكذلكَ أفكارُ كَثيرٍ من المُسلمينَ تَقميشٌ من زُبالةِ الفلسفاتِ، وحُثالةِ الحضاراتِ، وقُلامةِ المدنيّاتِ.

جـ – أنَّ الغُثاءَ الَّذي يحملُه السَّيلُ لا يَدري مصيرَه الّذي يَجري إليه باختيارِهِ، فهو كمن حَفرَ قبرَه بظُفرِه، وكذلكَ أمةُ الإسلامِ لا تدري ما يُخطّطُ لها أعداؤُها، ومع ذلكَ فيه تتبعُ كلَّ ناعقٍ، وَتميلُ مع كلِّ ريحٍ.

□ **التاسعة**: أنَّ أمّةَ الإسلامِ جعلت الدُّنيا أكبرَ همّها، ومبلغَ علمِها، فلذلكَ كرهوا الموتَ، وأحبّوا الحياةَ؛ لأنَّهم عَمَروا الدينا، ولم يتزوَّدوا للآخرةِ.

ولقد خافَ رسولُ اللهِ ﷺ على أُمّتِهِ أن تبلغَ هذهِ الحالةَ.

عن عبدِاللهِ بنِ عمرِو بن العاص رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قالَ:

«إذا فُتحت عليكم فارسُ والرُّومُ، أيُّ قومٍ أنتم؟».

قالَ عبدُالرحمنِ بنُ عوفٍ: نقولُ كما أمرنا اللهُ[(١)].

قالَ: «أو غير ذلكَ؛ تتنافسونَ، ثمَّ تتحاسدونَ، ثمَّ تَتَدابرونَ ثمَّ تتباغضونَ - أو نحو ذلك - ثمَّ تنطلقونَ في مساكِنِ المهاجرينَ؛ فتجعلونَ بعضَهم على رقابِ بعضٍ»[(٢)].

ولذلكَ لمّا فُتحت كُنوزُ كسرى بكى عُمرُ بنُ الخطّابِ رضي اللهُ عنه وقالَ: «إنَّ هذا لم يفتح على قومٍ قطُّ إلّا جعلَ اللهُ بأسَهم بينهم».

□ **التاسعة**: أنَّ أُممَ الكفرِ لن تَستطيعَ استئصالَ أُمةِ الإسلامِ ولو اجتمعوا عليها من أقطارِها - وقد اجتمعوا - كما جاءَ صريحاً في حديثِ ثوبانَ رضي اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«إنَّ اللهَ زوى[(٣)] لي الأرضَ؛ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أُمتي سيبلغُ مُلكها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمرَ والأبيضَ[(٤)]، وإنّي سألتُ ربي لأُمّتي أن لا يُهلكَها بسَنَةٍ عامّةٍ[(٥)]، وأن لا يُسلّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم؛ فيستبيح بيضتَهم[(٦)]، وإنَّ ربي قالَ: يا محمّدُ، إنّي إذا قَضيتُ قضاءً فإنّه لا يُرَدُّ، وإنّي أعطيتُكَ لأُمتِكَ أن لا أُهلكَهم بَسنةٍ عامةٍ، **وأن لا أُسلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم يستبيح بيضتَهم، ولو اجتمعَ عليهم مَن بأقطارِها**[(٧)] - أو قالَ: مَن بينَ أقطارَها - **حتّى يَكونَ بعضُهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضَهم بَعضاً**»[(٨)].

فما الّذي جَعلَ الشجرةَ الباسقةَ الّتي أصلُها ثابتٌ في السماءِ غُثاءً أحوى؟!

---

(١) نحمدُه، ونشكرُه، ونسألُه المزيدَ من فضلِه (نووي ١٨ / ٩٦).
(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٩٦٢).
(٣) جَمَعَ وَضَمَّ.
(٤) المرادُ الذهبُ والفضة، وهما كنزا كسرى وقيصر ملكي فارس والروم.
(٥) هو القحط الّذي يعمّهم.
(٦) يستأصل جماعتَهم وأصلَهم.
(٧) هم أهلُ الأرض جميعاً.
(٨) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)

الجوابُ في:

● **الثانية: حالة الدَّخَنِ.**

وهذا تجده في الإشارةِ النّبويّةِ الواردةِ في حديثِ حُذيفةَ بنِ اليمانِ رضي اللهُ عنه قال:

كانَ الناسُ يسألونَ رسولَ اللهِ عن الخيرِ، وكنتُ أسألُه عن الشّرِّ مخافةَ أنْ يُدركَني.

فقلتُ: يا رسولَ اللهِ إنّا كنَّا في جاهليّةٍ وشرٍّ، وجاءَ اللهُ بهذا الخيرِ، فهل بعدَ هذا الخيرِ من شرٍّ؟

قالَ: «نعم».

قلتُ: وهل بعدَ هذا الشّرِّ من خيرٍ؟

قالَ: «نعم، وفيه دَخَنٌ».

قلتُ: وما دخنهُ؟

قالَ: «قومٌ يستنّونَ بغيرِ سنّتي، ويهدونَ بغيرِ هديي، تعرفُ منهم وتنكرُ».

قلتُ: فهل بعدَ هذا الخيرِ من شرٍّ؟

قالَ: «نعم؛ دعاةٌ على أبوابِ جهنَّمَ من أجابَهم إليها قَذفوه فيها».

قلتُ: يا رسولَ اللهِ صفهم لنا.

قالَ: «هم من جلدتِنا، ويتكلَّمونَ بألسنتِنا».

قلتُ: فما تأمرني إن أدركني ذلكَ؟

قالَ: «تَلزمُ جماعةَ المُسلمينَ وإمامَهم».

قلتُ: فإنْ لم يَكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟

قالَ: «فاعتزل تلكَ الفرقَ كلَّها، ولو تعضّ بأصلِ شجرةٍ حتَّى يُدركَكَ الموتُ

وأنتَ على ذلكَ»[١].

إنَّ السُّمومَ الفتَّاكةَ الَّتي أنهكت قوَّةَ المُسلمينَ، وشلَّت حركتَهم، ونزعت بركتهم ليست سيوفَ الكفرِ الَّتي اجتمعت على الكيدِ للإسلامِ وأهلِهِ ودولتِه، وإنَّما هي الجراثيمُ الخبيثةُ الَّتي تسللت إلى داخلِ جسمِ العملاقِ الإسلاميّ على فتراتٍ بطيئةٍ، لكنَّها متواليةٌ وأكيدةُ المفعولِ.

وهذا يؤكِّدُ أنَّ الوصفَ الصليبيَّ اليهوديَّ لدولةِ الإسلامِ بـ « الرَّجلِ المريضِ » كانَ دقيقاً، فهم الَّذينَ غَرسوا بكتيريا الشّهواتِ وفيروساتِ الشبهاتِ في كيانِ دولةِ الإسلامِ، وأنَّها نمت وترعرعت في أحضانِهم ومحاضنِهم، وشربت لبانَهم حتَّى الثُّمالةَ.

وقد تنوَّعت عباراتُ شارحي الحديثِ حولَ مفهومِ الدَّخنِ، ولكنَّها تتفقُ في مُحصلةٍ واحدةٍ:

قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» (١٣ / ٣٦):

«وهو الحقدُ، وقيلَ: الدغلُ، وقيلَ: فسادُ القلبِ، ومعنى الثلاثةِ مُتقاربٌ.

يُشيرُ إلى أنَّ الخيرَ الَّذي يَجيءُ بعدَ الشرِّ لا يَكونُ خالصاً بل فيه كدرٌ.

وقيلَ: المرادُ بالدَّخنِ الدخان، ويُشيرُ بذلكَ إلى كدرِ الحالِ.

وقيلَ: الدّخنُ: كلُّ أمرٍ مكروه.

وقالَ أبو عبيدٍ: يفسرُ المُرادَ بهذا الحديثِ الحديثُ الآخَرُ: «لا ترجعُ القلوبُ على ما كانت عليه».

وأصلُه: أن يَكونَ في لونِ الدابةِ كدورةٌ؛ فكأنَّ المعنى أنَّ قلوبَهم لا يَصفو بعضُها إلى بعضٍ ».

ونقلَ النوويُّ في «شرحِ صحيحِ مسلم» (١٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧) قولَ أبي عُبيدٍ.

قالَ البغويُّ في «شرحِ السنّةِ» (١٥ / ١٥):

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٦ / ٦١٥ - ٦١٦ - فتح)، ومسلمٌ (١٨٤٧).

«وقولُهَ: «فيه دخن»، أي: لا يَكونَ الخيرُ محضاً، بل فيه كدرٌ وظُلمةٌ، وأصلُ الدّخنِ أن يَكونَ في لونِ الدّابّةِ كدورةٌ إلى السوادِ» أ.هـ

ونقلَ العظيمُ أبادي في: «عونِ المعبودِ» (١١ / ٣١٦) عن القاري قولَه:

«وأصلُ الدّخنِ هو الكدورةُ واللّونُ الّذي يضربُ إلى السّوادِ، فيكونُ فيه إشعارٌ إلى أنّه صلاحٌ مشوبٌ بالفسادِ»أ.هـ

قلتُ: تتمخّضُ هذه الشروحاتُ عن أمرينِ:

أوّلها: أنّ هذه مرحلةٌ ليست خيراً خالصاً، وإنّما مشوبةٌ بكدرٍ يعكّرُ صفوَ الخيرِ، ويجعلُ مذاقه ملحاً أُجاجاً.

الآخرُ: أنّ هذا الكدرَ يُفسدُ القلوبَ، ويجعلُها ضعيفةً حيثُ دبَّ إليها داءُ الأممِ، وتتخطّفها الشّبهاتُ.

ولسنا بحاجةٍ للوقوفِ طَويلاً عندَ كلِّ شرحٍ نبيِّنُ صحيحَه من قَبيحِهِ، وسليمَهِ من سَقيمِهِ؛ لأنّ رسولَ اللهِ ﷺ قررَ أُموراً ذاتِ دلالاتٍ:

□ **الأولى: البِدَع.**

إنّ هذا الدَّخنَ انحرافٌ يعتري المنهجَ النبويَّ الحقَّ الّذي كانَ يسودُ مرحلةَ الخيرِ الخالصِ، فيؤدي إلى تشويه المحجّةِ البيضاءِ الّتي ليلُها كنهارِها، ألم يَقل ﷺ في تَفسيرِ **الدّخنِ** كما جاءَ في حديثِ حُذيفةَ عندما سألَه رضي اللهُ عنه:

« **قومٌ يستنّونَ بغيرِ سنّتي، ويَهدونَ بغيرِ هديي، تعرفُ منهم وتنكرُ** ».

هذا هو أصلُ الدّاءِ وجذرُ البلاءِ، إنّه انحرافٌ عن السُّنّةِ في المَنهجِ، وانصراف عن السمتِ النبويِّ في السلوكِ والعملِ.

وبهذا يتضحُ أنّ **الدّخنَ** الّذي شابَ الخيرَ فكَدّر معينَه وغيّرَ رواءه هو البدعُ الّتي أطلّت برؤوسِها من أوكارِ المُعتزلةِ والصوفيّةِ، والجهميّةِ، والخوارجِ، والأشعريّةِ، المُرجئةِ، والرّوافضِ، منذُ قرونِ ابتغاءَ الفتنةِ، فأمعنت في الإسلامِ تحريفاً، وانتحالاً، وتأويلاً.

فلم يَبقَ من القرآنِ إلّا رسمه، ومن الإسلامِ إلّا اسمه، ومن التعبّدِ إلّا جسمُه.

ومنه يتّضحُ أنَّ أمرَ البدعِ خطيرٌ؛ لأنّها تُفسدُ القُلوبَ والأبدانَ بينما الأعداءُ يُفسدونَ الأبدانَ.

ولذلكَ فقد اتّفقت كلماتُ السَّلفِ الصّالح على وجوبِ مُجاهدةِ أهلِ البدعِ وهجرِهم.

قالَ مؤرّخُ الإسلامِ الذَّهبيُّ في كتابِه المستطاب: «سير أعلامِ النبلاءِ» (٧ / ٢٦١) بعد أن نَقلَ قولَ سفيانَ الثوريّ: «من أصغى بسمعه إلى صاحبِ بدعةٍ وهو يعلمُ، خرجَ من عصمةِ اللهِ، ووكل إلى نفسِه».

وعنه: «من سمعَ ببدعةٍ فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم».

قالَ الذّهبيّ: «**أكثرُ السَّلفِ على هذا التّحذيرِ، يرونَ أنَّ القلوبَ ضعيفةٌ والشُّبَه خطّافةٌ**».

قلتُ: صدقَ رحمه اللهُ وبرَّ ونصحَ.

وبذلكَ أصبحت الأمةُ الإسلاميّةُ في ذيلِ القافلةِ البشريّةِ مرتعاً لكلِّ ناعقٍ، واستنسرَ بأرضِها الباطلُ وهو زاهقٌ، وتكلَّمَ في أمرِها كلُّ منافقٍ مارق.

ونَبتت خلوفٌ اتّبعوا الشّهواتِ، واجتالتهم الشُّبهاتُ؛ فغزا الوهنُ قلوبَهم، وظهرت في الأمةِ سكرتَا الجهلِ وحبِّ العيشِ، فلم تَعد آمرةً بالمعروفِ، ناهيةً عن المنكرِ، مجاهدةً في سبيلِ اللهِ، ففقدت خيريّتَها؛ لأنها لم تؤدِّ شرطَ اللهِ فيها[1].

روي عن أنسٍ رضي اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«أنتم على بينةٍ من ربِّكم، تأمرونَ بالمعروفِ، وتنهونَ عن المنكرِ، وتجاهدونَ في سبيلِ اللهِ، ثمَّ تظهرُ فيكم السَّكرتانِ؛ سكرةُ الجهلِ، وسكرةُ حبِّ العيشِ، وستحولونَ عن ذلكَ، فلا تأمرونَ بمعروفٍ، ولا تنهونَ عن منكرٍ، ولا تُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ، القائمونَ يومئذٍ بالكتابِ والسّنّةِ لهم أجرُ خمسينَ صدّيقاً».

قالوا: يا رسولَ اللهِ منّا أو منهم؟

---

(١) انظر لزاماً «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١ / ٣٩٩ - ٤٠٥).

قالَ: «لا بل منكم»[١].

□ الثانية: حصونُنا مهددةٌ من الداخلِ

لكيلا تستيقظَ الأمةُ الإسلاميّةُ على وخزِ الإبرِ السّامّةِ المحقونةِ بالجراثيمِ الفاتكةِ الّتي تغرزُ في جسمِها، وإمعاناً في تضليلِها وتعتيمِ الأمورِ عليها، وحجبِ الحقائقِ عن بصرِها، فقد قامَ أئمّةُ الكفرِ بإقامةِ مصانعَ داخليّةٍ[٢]؛ لإفرازِ سمومِهم من الدّاخلِ فلا تَظهر أعراضُ المرضِ الخبيثِ إلّا بعدَ مدةٍ طويلةٍ، وحينئذٍ يستعصي على الطّبيبِ، ويُحيّرُ اللّبيب.

هذهِ المصانعُ الّتي تُردِّدُ ما يلقى في سمعها من أعداءِ اللهِ، وتفرزُ ما يَحقنُه بها أئمّةٌ يَهدونَ إلى النارِ هي من جلدتنا، وتتكلّمُ بلغتنا، وتزعمُ الحرصَ على أمّتنا، والعملَ على بعثِ حضارتِنا.

ولذلكَ؛ فإنَّ الذينَ غَرسوا هذهِ الجراثيمَ في جسمِ الأمةِ الإسلاميّةِ هم من أبنائها.

ولكنَّ الرحمةَ المُهداةَ ﷺ لم يترك في الأمرِ لبساً، فقد بيّنه بوحيٍ من اللهِ ولم يَكن حدساً.

ففي حديثِ حذيفةَ وصفٌ لهؤلاءِ النّفرِ الّذين صنعهم أئمةُ الكفرِ على أعينهم، وغذّوهم بلبانِهم.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نعم؛ دعاةٌ على أَبوابِ جهنّمَ من أجابهم إليها قَذَفوهُ فيها».

---

(١) أخرجه أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٨ / ٤٩) وفي إسنادِه مقالٌ.

وقد كنتُ صححتُ إسنادَه في كتابي: «القولِ المبين في جماعةِ المسلمينَ» (ص ٣٦)، ثمّ تبيّنَ لي ضعفُه، وبينتُ ذلكَ في كتابي: «القابضونَ على الجمر» (ص ٢١ - ٢٢).

وأكدتُ ذلكَ هنا لتبرأَ عُهدتي، ويغفرَ لي ربي زلّتي، فهذه أمانةُ العلم الّتي نَدينُ اللهَ بها.

(٢) تمَّ ذلكَ لأعداءِ اللهِ بطريقتينِ:

الأولى: الابتعاث، والّذي سنّه محمد علي ودرجَ عليه من أتى بعدَه، وهناك يتمُّ غسيلُ الدماغِ لأبناءِ المُسلمينَ ومن ثمّ يرجعونَ إلى ديارِهم ينفذونَ ما سَمعوه ورأوه.

الثانية: الاستشراق، ومنه تسلل الماكرونَ من أعداءِ اللهِ تحتَ شعارِ الدراسةِ والبحثِ العلميّ، وقد أثبتتَ الدراساتُ المُحايدةُ أنَّ هؤلاءِ المستشرقينَ عملاء لأجهزةِ المُخابراتِ الصليبيّةِ اليهوديّةِ.

قلتُ: يا رسولَ اللهِ صفهم لنا.

قالَ: «هم من جلدتنا ويتكلَّمونَ بألسنتنا».

فهذه الصِّفةُ الأولى الَّتي يُعرفونَ بها، فهم من العربِ نسباً أولغةً.

قالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه اللَّهُ في «فتحِ الباري» (١٣ / ٣٦):

«أي: من قومِنا ومن أهلِ لسانِنا وملّتنا، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم من العربِ.

وقالَ الدّاوديُّ: أي من بني آدمَ.

وقالَ القابسيُّ: معناه في الظاهرِ على ملَّتنا، وفي الباطنِ مُخالفون، وجلدةُ الشّيءِ ظاهره، وهي في الأصلِ غشاءُ البدنِ.

قيلَ: ويؤيّدُ إرادةَ العربِ أنَّ السّمرةَ غالبةٌ عليهم، واللَّونُ إنَّما يَظهرُ في الجلدِ» أ. هـ

وفي روايةٍ: «وسيقومُ فيهم رجالٌ قلوبُ الشّياطينِ في جثمانِ الانسِ»[1].

وهذه الصفةُ الثانيةَ الَّتي يُعرفونَ بها، فهم يُظهرونَ الحرصَ على الأُمةِ ومصالِحها وسيادتِها واستقلالِها وتميُّزِها... يُرضونَ الأمّةَ بألسنتِهم، وتأبى قلوبُهم إلّا تنفيذَ ما تعلَّموه وتربوا عليه في محاضنِ أسيادِهم من الصّليبيينِ واليهودِ.

قالَ تعالى: ﴿**ولن تَرضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتَّى تتبعَ ملَّتهم**﴾ [البقرة: ١٢٠].

هذا ما يُخططُ له الأسيادُ من الفرنجةِ واليهودِ، وينفذه العبيدُ من الرويبضاتِ الَّذينَ استنسروا في أرضِنا؛ لأنَّهم ترعرعوا عليها، وأكلوا من خيراتِها، ولكنَّهم عُمّدوا في محاضنِ حزبِ الشيطانِ، وجنودِ إبليسَ الَّذين درَّبوهم على المبدأ الصليبيّ القاتلِ: إنَّه بَطيءٌ ولكنَّه أكيدُ المَفعول.

وهو ما حذَّرَ منه المولى عزَّ وجلَّ في قولِه: ﴿**كيفَ وإن يَظهروا عليكم لا يَرقبوا فيكم إلاَّ ولا ذمَّةً يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم وأكثرُهم فاسقونَ**﴾ [التوبة: ٨].

---

(١) أخرجه مسلم (١٢ / ٢٣٦- ٢٣٧ - نووي).

قالَ تعالى: ﴿وإذا لقـوا الّذينَ آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوْا إلى شياطينِهم قالوا إنّا معكم إنّما نحنُ مستهزئونَ﴾ [البقرة: ١٤].

هكذا يستخفّونَ بالشعوبِ والأمم فأطاعتهم، وأسلمت قيادَها لهم؛ لأنّها فسقت عن منهجِ اللهِ، وهم يجرونَها إلى النارِ، ويريدونَها أن تتبوّأَ دارَ البوارِ.

وهؤلاءِ لا يَفتُرونَ في الدعوةِ إلى ضلالاتِهم ومنكرِهم ويُقيمونَ لذلكَ التجمعاتِ والأحزابَ والمؤتمراتِ والصّالوناتِ، ولذلكَ وردَ وصفُهم بأنّهم دعاةٌ.

والدُّعاةُ بضمٍّ الدال: جمع داعٍ وهي جماعةٌ قائمةٌ بأمرِها، وداعيةٌ للنّاسِ إلى قَبولِها[١].

هذه التحذيراتُ النبويّةُ والومضاتُ السُنِّيّةُ إشارةُ أصبعٍ للذينَ أُصيبوا بعمى الألوانِ؛ فأصبحوا مجرَّدَ أبواق يُرددونَ ما يُلقى إليهم من وراءِ البحارِ وخلفِ الحدودِ (!)

إنّها تنبيهاتٌ للأمةِ الإسلاميّةِ لعلّها تحذرُ كيدَ الكافرينَ، وتستفيقُ فَلا تَتّبعُ سبيلَ المُجرمينَ.

إننا وَجدنا آثارَها في تاريخِ المُسلمينَ، ورأينا شرورَها في دنيا الناسِ أجمعينَ.

والأمثلةُ كثيرةٌ تَفوقُ الحصرَ، وهي متوارثةٌ في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

ولم تَزل جُموعُ دعاةِ الضلالةِ ترفعُ عقيرتَها إلى يومنا هذا تَدعو إلى جهنَّمَ - عِياذاً باللهِ -.

فهاهم دعاةُ **الحزبيّة الديمقراطيّةِ** ينبحونَ، وها هم **أربابُ الاشتراكيّةِ** ينهقونَ، وها هم **أولياءُ القوميّةِ** ينحبونَ... والناسُ وراءَهم يَلهثونَ.

وبهذا يَكونُ مثيرو الدَّخنِ هم سلفَ دعاةِ الضلالةِ، وبهذا يتضحُ أنَّ سلسلةَ التآمرِ على الإسلامِ، وأهلِهِ، ودولتِهِ لها جُذورٌ عميقةٌ في التاريخِ الإسلاميِّ.

---

(١) انظر «عون المعبود» للعظيم أبادي (١١ / ٣١٧).

□ الثالثةُ: سنواتٌ خدَّعاتٌ.

إنَّ ظاهرَ هذهِ المرحلةِ خيرٌ لكنَّ باطنَها من قِبَلِه الهَلاكُ، ألم يَقل رسولُ اللهُ في حديثِ حُذيفةَ رضي اللهُ عنه عندَ مسلمٍ: «**وسيقومُ فيهم رجالٌ قُلوبُ الشياطينِ في جُثمانِ إنسٍ**»؟

وهذا قد يَخدعُ كثيراً من الناسِ الّذينَ يَنظرونَ إلى ظواهرِ الأشياءِ لكنَّ أبصارَهم عن بواطنِ الأمورِ محجوبةٌ، وبذلكَ لا يُلقونَ بالاً لإصلاحِ الخللِ من بدايتِهِ حتَّى لا يستفحلَ، ويتسعَ الخرقُ على الرَّاقعِ.

إنَّ هذا الدَّخنَ يَنمو فاتكاً بالخيرِ حتَّى يُسيطرَ؛ فتكونَ مرحلةُ الشرِّ الخالصِ، وبدايةُ دعاةِ الضلالةِ، وفرقِ الغوايةِ.

إنَّ رؤوسَ الفتنةِ يَعملونَ بنشاطٍ، بينما أهلُ الحقِّ غافلونَ نائمونَ؛ بدليلِ أنَّ هذا الدخنَ كبُرَ حتَّى س ارَ، ووثبَ على الحقِّ وأهلِهِ، وثلَّ عرشَ دولتِهِ.

ولذلكَ ألقت الأمورُ أزمتَها إلى الرويبضاتِ في هذه السنواتِ الخدّاعاتِ، ووُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ، ووُضعَ الحقُّ في غيرِ محلِّهِ.

عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«سيأتي سنواتٌ خدَّاعاتٌ، يصدَّقُ فيهنَّ الكاذبُ، ويكذَّبُ فيهنَّ الصادقُ، ويؤتمنُ الخائنُ، ويُخوَّنُ الأمينُ، وينطقُ فيها **الرُّويبضةُ**».

فقيلَ: وما الرُّويبضةُ؟

قالَ: «الرَّجلُ التافه يتكلَّمُ في أمرِ العامّةِ»(١).

□□□□□

---

(١) **صحيح لغيره**: أخرجَه ابنُ ماجه (٤٠٣٦)، وأحمدُ (٢ / ٢٩١)، والحاكمُ (٤ / ٤٦٥ - ٤٦٦، ٥١٢)، والخرائطيُّ في «مكارم الأخلاقِ» (ص ٣٠)، الشجريُّ في «أماليه» (٢ / ٢٥٦ و٢٦٥). من طريقِ عبدِالملكِ بنِ قُدامةَ الجمحيِّ عن إسحاق بن أبي فراتٍ عن المَقبُريّ عن أبي هُريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (فذكرَه). =

. . . .

= قالَ الحاكم: «صحيح الإسنادِ»، ووافقه الذهبيُّ.

قلت: وليسَ كما قالا؛ فإنَّ إسنادَه ضَعيفٌ؛ فيه عبدُالملكِ بنُ قُدامةَ الجُمحي، وقد ضعفه الذهبيُّ رحمه اللهُ في عدةٍ من كتبِهِ، ونقلَ تضعيفَه عن جمعٍ (!)

وفيه إسحاقُ بنُ أبي فراتٍ، وهو مجهولٌ؛ كما في «التقريبِ».

وللحديثِ طَريقٌ أُخرى تقويه:

أخرجَه أحمدُ (٢ / ٣٣٨) من طريقِ فُليحَ بن سُليمانَ عن سعيدِ بنِ عُبيدٍ عن أبي هريرةَ مرفوعاً.

قلت: رجالُه كلُّهم ثقاتٌ؛ إلّا فُليحٌ ففيه؛ كلامٌ من قبلِ حفظهِ.

فحديثُ أبي هُريرةَ بمجموعِ الطريقينِ حسنٌ.

ولكنْ؛ له شواهدُ يَرتقي بها إلى درجةِ الصحّةِ.

الأوّلُ: حديثُ أنسٍ رضي اللهُ عنه وله طَريقانِ:

١- من طريقِ محمدِ بنِ إسحاقَ عن عبدِاللهِ بنِ دينارٍ عنه.

أخرجه أحمدُ (٣ / ٢٢٠)، والطحاويُّ في «مشكل الآثار» (٤٦٦).

قالَ المُعلّقُ على «المُشكلِ» (١ / ٤٠٥): «رجالُه ثقاتٌ إلّا أنَّ فيه عنعنةَ ابنِ إسحاقَ».

قالَ الهيثميُّ في «المَجمعِ» (٧ / ٨٤٤): «رواه البزّارُ، وقد صرَّحَ ابنُ إسحاقَ بالسماعِ عن عبدِاللهِ بنِ دينارٍ، وبقيّةُ رجالِهِ ثقاتٌ».

قلتُ: وهو كما قالَ؛ فإنَّ الحديثَ في «كشفِ الأستارِ عن زوائدِ البزّارِ» (٣٣٧٣) صرّح فيه ابن إسحاقَ بالتحديثِ.

الثانية: من طريقِ محمد بن إسحاقَ عن محمدِ بن المُنكدرِ عن أنسٍ.

أخرجه أحمدُ (٣ / ٢٢٠).

قلتُ: فيه ابنُ إسحاقَ، وهو مدلِّسٌ، وقد عنعنه.

وبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ لمحمدِ بنِ إسحاقَ شيخينِ في هذا الحديثِ:

الأوّلُ: عبدُاللهِ بنِ دينارٍ، وصرّحَ عنه بالتحديثِ.

والآخرُ: محمد بنُ المنكدرِ، لم يُصرِّح عنه بالسماعِ.

الثاني: حديثُ عوف بن مالكٍ الأشجعيِّ رضي اللّهُ عنه.

أخرجه البزّارُ (٣٣٧٣)، والطبرانيُّ في «الكَبيرِ» (١٨ / ٥٦ - ٥٧) و «مسندِ الشاميين» (٤٧ و ٤٨)، والطحاويُّ في «مشكلِ الآثارِ» (٤٦٤).

من طُرقٍ عن إبراهيمَ بنِ أبي عبلةَ عن أبيهِ عنه به.

قلتُ: فيه شمر بنُ يَقظانَ، وهو والدُ إبرهيمَ بنِ أبي عبلةَ، لم يَروِ عنه إلّا ابنُه، ولم يوثّقه غيرُ ابنِ حبّانَ؛ فهو مجهولٌ.

وعلى الجملةِ؛ فالحديثُ صحيحٌ بطرقِهِ وشواهدِهِ؛ كما هو مقرر في مصطلح الحديث وقواعده.

والله متمُّ نورِه

على الرّغمِ من مكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ الَّذي يَدعو المسلمينَ إلى دارِ البَوارِ، فقد جاءَ الدّعاةُ إلى اللهِ من أهلِ العلمِ وطلّابه على قدرٍ؛ ففجأوا مصانعَ الضلالةِ، ومراكزَ الغوايةِ الَّتي تَعيشُ في ديار المُسلمينَ سفاداً، وتَعيثُ في أرضِهم فساداً؛ لأنَّ هذهِ الطُّفيليّاتِ نَقلت نُقطة ارتكازِها نهائيّاً أو كادت إلى دائرةِ المدنيّة الصليبيّةِ اليهوديّةِ، وظنّت ظنَّ السوءِ أنَّ: الأمّةَ قد أزمعت أن تَخرجَ من الإسلامِ... ولن تَعود.

ولكنَّ هؤلاء أغفلوا حقائقَ كثيرةً لا تَسيرُ بتوجيهاتِهِم ولا تَقعُ في دائرةِ حساباتِهم؛ لأنَّ اللهَ جعلَ في آذانِهم وقراً أن يسمعوه، وعلى قلوبِهم أكنّةً أن يَفقهوه، وعلى أعينِهم غِشاوةً أن يبصروه.

١- أغفلوا باديَ بَدْءٍ أنَّ الأمرَ للهِ من قبلُ ومن بعدُ، وليسَ لهم أو لغيرِهم من الإنسِ والجنِّ.

قالَ جلَّ جلالُه: ﴿والله غالبٌ على أمرِهِ ولكنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعلمونَ﴾ [يوسف: ٢١].

قالَ جلَّ ثناؤه: ﴿وربّكَ يَخلقُ ما يَشاءُ ويَختارُ ما كانَ لهم الخيرةُ﴾ [القصص: ٦٨].

وقالَ تباركَ وتعالى: ﴿ بَديعُ السماواتِ والأرضِ وإذا قَضى أمراً فإنّما يَقولُ له كن فَيكون﴾ [البقرة: ١١٧].

واللهُ سبحانَه كتبَ لهذا الدينِ البقاءَ في الأرضِ رغمَ كيدِ الأعداءِ ومكرِهم، فأخبرَ جلَّ جلاله: ﴿يُريدونَ ليُطفئوا نورَ الله بأفواهِهم والله متمُّ نورِهِ ولو كرِهَ الكافرونَ هو الّذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهرَه على الدينِ كلّه ولو كَرِه المشركون﴾ [الصف: ٨، ٩].

وهذا يَقتضي أن يَبقى فئامٌ من المسلمينَ قائمينَ على أمرِ اللهِ لا يَضرهم كيدُ

الأعداءِ حتّى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ.

٢- أنَّ عامةَ المُسلمينَ قد صحبوا هذا الدينَ قروناً كَثيرةً قبلَ أن يُحاولَ المُرجفونَ بثَّ سمومِ الصليبيّةِ واليهوديّةِ والإلحادِ في ديارِ المُسلمينَ.

فإذا غَفلَ المسلمونَ عن دينِهم فترةً، فإنَّما هي سحابةُ صيفٍ عمَّا قَليلٍ تنقشعُ عندما يذهبُ مفعولُ التخديرِ الَّذي حُقنت به الأمةُ الإسلاميّةُ.

○ وهذا يستلزم أن لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجّة على النّاس يقول الحقّ، ويوضّحُ السّبيل، ويُبيّن الدليل.

٣- أغفلوا أنَّ هذا الدينَ هو دينُ الحقِّ، والحقُّ يمكثُ في الأرضِ؛ لأنَّه ينفعُ الناسَ، والبقاءُ للحقِّ؛ لأنَّه الأقوى والأصلح، ولتعلمنَّ نبأه بعدَ حينٍ[1].

○ وهذا يسلتزمُ بقاءَ طائفةٍ من المُسلمينَ على الحقِّ لا يَضرُّهم من خالفَهم أو خذلَهم؛ لأنَّ هذه الأمّةَ المرحومةَ لن تجتمعَ على ضلالةٍ.

□□□□□

---

(١) وقد استفدتُ في أصلِ هذه الكلمات من كتاب «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (!).
والكتابُ فيه عشراتٌ كثيرةٌ ومزالقُ خطيرة حول منهج السلف الصّالح، وقد بينتها في رسالةٍ مفردةٍ سمّيتُها: «عقد الخناصر في ردّ أباطيل واقعنا المعاصر».

واقِع الصَّحوةِ الإسلاميَّة

وبدأَ المُسلمونَ يستيقظونَ فيرونَ واقعاً مَريراً، ودياراً مفتتةً، واتجاهاتٍ كثيرةً تَدعوهم للتخلي عن إسلامِهم ومصدرِ عزَّتِهم، فأخذت كلُّ طائفةٍ من المُسلمينَ تنظرُ للواقعِ من جهةٍ تَختلفُ عن نظرةِ الطائفةِ الأخرى.

ولذلكَ فالحقُّ يُقالُ: إنَّ الجماعاتِ العاملةَ اليومَ في ميدانِ الدعوةِ تَختلفُ بينَها اختلافاً واسعاً حولَ منهجِ الدعوةِ، ونقطةِ الانطلاقِ، وكيفيّةِ المَسيرِ.

وأَخطرُ خلافٍ يحولُ بينَ اتفاقهم على كلمةٍ سواءٍ أمرانِ:

□ **الأوّلُ: عدمُ إدراكِهم لحجمِهم:**

إنّنا لم نزل نُشاهدُ حزبيّةَ الضيقةَ قد ضَربت بِجرانها حولَ عُقولِ كثيرٍ من الجماعاتِ العاملةِ في ميدانِ الدعوةِ إلى اللهِ، فأصبحتْ لا تَرى إلّا نفسَها، وهضمت وُجودَ الآخرينَ من حولِها.

وتنامى الأمرُ حتّى رأينا أنَّ بعضَها يدعي أنَّه جماعةُ المُسلمينَ، وأنَّ مؤسسَها هو إمامُ المُسلمينَ، وبنوا على ذلك توهمات:

فبعضُها ادَّعى وُجوبَ البيعةِ لإمامِهم.

وآخرونَ كَفَّروا السَّوادَ الأعظمَ من المُسلمينَ بعدَ قرونِ الخيرِ المُفضلةِ.

ورهطٌ زَعموا أنّهم الجماعةُ الأمُّ الَّتي يَجبُ على الآخرينَ أن يَلتفوا من حولِها، ويستظلوا برايتِها.

وتناسى أكثرُهم أنّهم يَعملونَ لإعادةِ جماعةِ المُسلمينَ، فلو كانت جماعةُ المُسلمينَ موجودةً، وإمامُها موجوداً لما رأينا هذا الاختلافَ والتعددَ الَّذي ما أنزلَ اللهُ به من سلطان.

والحقيقةُ أنَّ العاملينَ للإسلامِ هم جماعاتٌ من المُسلمينَ؛ أي من أهل القِبلة، وليسَ جماعةَ المسلمينَ.

واعلم أيها المسلمُ: أنَّ جماعةَ المسلمينَ هي الّتي ينتظمُ في سلكِها جميعُ المسلمينَ، ويَكونُ لها إمامٌ منفذٌ لأحكامِ اللهِ حيثُ تجبُ طاعتُه، وإعطاؤه صفقةَ اليدِ وثمرةَ الفؤادِ.

فهي دولةُ الإسلامِ الَّتي على رأسِها خليفةٌ منفذٌ لأحكامِ اللهِ، وأمّا الجماعاتِ الَّتي تعملُ على إعادةِ دولةِ الخلافةِ فهي جماعاتٌ من المُسلمينَ، يجبُ أن تتعاونَ فيما بينها، وتلغي الحواجزَ القائمةَ بينَ أفرادِها، ليلتقوا على كلمةٍ سواءٍ تحتَ كلمةِ التوحيدِ والسنّة وفهم سلف الأمّة.

نقلَ الحافظُ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ رحمه اللهُ في «فتح الباري» (١٣ / ٣٧) عن الطبري قولَه: «واختلفَ في هذا الأمرِ، وفي الجماعةِ:

فقالَ قومٌ: هو للوجوبِ، والجماعةُ السوادُ الأعظمُ، ثمَّ ساقَ عن محمدِ بنِ سيرينَ عن ابن مسعود: أنَّه وصَّى من سألَه لمّا قتل عثمان أنَّ عليكَ بالجماعةِ؛ فإنَّ اللهَ لم يَكن ليجمعَ أُمةَ محمدٍ على ضلالةٍ.

وقالَ قومٌ: المُرادُ بالجماعةِ الصحابةُ دونَ من بعدَهم.

وقالَ قومٌ: المرادُ بهم أهلُ العلمِ؛ لأنَّ اللهَ جعلهم حجّةً على الخلقِ، والناسُ تبعٌ لهم في أمرِ الدينِ.

والصوابُ: أنَّ المرادَ من الخبرِ لزومُ الجماعةِ الَّذينَ في طاعةِ من اجتمعوا على تأميره، فمن نكثَ بيعتَه خرجَ عن الجماعة.

وفي الحديثِ: أنَّه متى لم يَكن للناسِ إمامٌ فافترقَ الناسُ أحزاباً فلاَ يتبعُ أحدٌ في الفرقةِ، ويعتزلُ الجميع إن استطاعَ ذلكَ خشيةَ من الوُقوعِ في الشرِّ، وعلى ذلكَ يتنزلُ ما جاءَ في سائرِ الأحاديثِ، وبه يجمعُ ما ظاهرُه الاختلافُ منها» أ.هـ

إنَّ هذه الجماعاتِ يجبُ على المسلمِ أن يُعينَها فيما عندَها من الحقِّ؟

ويجبُ عليه أن يتولّاها نصحاً وإرشاداً فيما خالفت في الحقِّ أو قصرت فيه من الحقِّ.

وهذه الجماعاتُ يجبُ عليها أن تتعاونَ فيما اتفقت عليه من الحقِّ، وينصحَ بعضُها بعضاً فيما اختلفوا فيه، ويسألوا اللهَ أن يهديَهم في ذلكَ إلى صراطٍ مُستقيمٍ(١).

وهذه الجماعاتُ يجبُ أنْ تكونَ يداً واحدةً لبناءِ صرحِ الإسلامِ الشامخِ، وبعثِ مجدِهِ من جديدٍ؛ لأنها إذا وقفت فُرادى فلن تستطيعَ ذلكَ، واللهُ يتولّى الصالحينَ.

وهذه الجماعاتُ يجبُ أن تُغذيَ أتباعَها بالحقِّ والحُبِّ لجميعِ المُسلمينَ، فتحطّمَ حواجزَ الحزبيّةِ الَّتي فرّقت شملَها، وأضعفت قوتَها، وذهبت بريحِها.

وبذلكَ؛ فإنَّ الخارجَ من هذه الجماعاتِ ليسَ بخارجٍ من جماعةِ المُسلمينَ؛ لأنَّ هذه الجماعات ليسَ لها صفةُ ذلكَ، ولا لمؤسسيها أهليّةُ إدعاءِ الإمامةِ.

□ **الآخر: اختلافُهم في مصادرِ التلقي والفهمِ للكتابِ والسنّةِ.**

وقد أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ حذيفةَ رضي اللهُ عنه باعتزالِ جميعِ الفرقِ الَّتي تَدعو إلى جهنَّمَ أيامَ الشرورِ و فتنٍ، عندما لا يَكونُ للمسلمينَ جماعةٌ ولا إمامٌ.

وقد تنوَّعت كلماتُ العُلماءِ في شرحِ هذا الأمرِ النبويّ، والَّذي شرحَ الله صدري إليه أنَّ هذا الأمرَ النبويَّ فيه وُجوبُ التزامِ الحقِّ، ومناصرةِ أهلِهِ، والتعاونِ على أساسِهِ، ودونكَ البيانُ:

١- **هذا أمرٌ بلزومِ الكتابِ والسنةِ بفهمِ السلفِ الصالحِ**، يدلُّ على ذلكَ قولُه ﷺ في حديثِ العرباضِ بنِ ساريةَ - رضي اللهُ عنه -:

---

(١) خلافاً للقاعدة الحزبيّة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذرُ بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه»، وقد بيّن ضررها وخطرها الأخ حمد العثمان حفظه الله في كتابه: «زجر المتهاون بضرر قاعدة العذر والتعاون».

والتّعاون على البرّ والتقوى بين المسلمين واجب شرعي وبخاصة بين العاملين في ميدان الدعوة، ولكن لا يتمُّ هذا التعاون إلّا على أصلين؛ هما:

١- منهج السّلف الصالح.

٢- ترك التحزّب.

وأمّا أن تبقى كُلُّ جماعةٍ أو حزبٍ على عقائدها المخالفةِ للسّلفِ، ولها كيانٌ يستقلُّ عن غيرها؛ فلا يكون تعاونٌ إلّا على سبيلِ المغضوبِ عليهم، تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتّى.

وأمّا محاولة بعض المتسببين لأهلِ السّنة التقليل من أهميّة ذلك؛ فهي دعوة الحقّ السّلفيّة؛ فلا تكُ منَ المغترين، فكلامهم كالعسل، ومواقفهم من علماء المنهج السّلفي وعلمائه كالأسل.

«من يَعش منكم فسيرى اختلافاً كَثيراً، وإيّاكم ومُحدثاتِ الأمورِ؛ فإنّها ضلالةٌ، فمن أدركَ ذلكَ منكم فعليكم بسنتي وسنةِ الخُلفاءِ الرّاشدينَ عَضوا عليها بالنواجذِ»(١).

ففي حديثِ حُذيفةَ أمَرَه أن يَعضَّ على أصلِ شجرةٍ عندَ الاختلافِ مُعتزلاً فرقَ الضلالةِ.

وفي حديثِ العرباضِ أمره أن يَعضَّ على السنةِ النبويّةِ بفهمِ الصحابةِ بالنواجذِ عند الاختلافِ، وأن يَبتعدَ عن المحدثاتِ فإنّها ضلالةٌ.

فإذا جَمعنا بينَ الحديثينِ ظهرَ معنى رائقٌ؛ وهو: **التزامُ السُّنّةِ النَّبويّةِ بفهمِ السّلفِ الصّالحِ رضوانُ اللهِ عليهم** عندَ ظُهورِ فرقِ الضّلالةِ، وغيابِ جماعةِ المُسلمينَ وإمامِها.

٢- يدلّكَ على ذلكَ أنّ الأمرَ بأنْ يَعضَّ على أصلِ شجرةٍ في حديثِ حذيفةَ ليسَ ظاهرُه المُرادَ.

وإنّما معناه: الثباتُ والصبرُ على الحقِّ، واعتزالُ فرقِ الضلالةِ الّتي جانبت الحقَّ.

أو معناه: أنَّ دوحةَ الإسلامِ الوارفةَ ستعصفُ بها الرياحُ الهوجُ؛ فتحَطّمُ أغصانَها فَلا يَبقى إلّا أصلُها الثابتُ الّذي يَقفُ متحدياً الأعاصيرِ، عندئذٍ يجبُ على المُسلمينَ أن يَحتضنوا هذا الأصلَ ويفدوه بالنفسِ والنفيسِ؛ لأنّه سينمو مرّةً أُخرَى رغمَ شدةِ رياحِ السّمومِ.

٣ - حينئذٍ يجبُ على المسلمِ أن يَمدَّ يدَه للطائفةِ الّتي أحاطت هذا الأصلَ الثابتَ لتردَّ عنه عوادي الفتنِ، وضواري المحنِ.

هذه الطائفةُ لا تَزالُ ظاهرةً على الحقِّ حتّى يُقاتلَ آخرُهم الدجالَ(٢).

وبذلكَ تتمحضُ خاتمةُ حديثِ حذيفةَ رضي اللهُ عنه عن ثلاثةِ أمورٍ:

---

(١) سيأتي تخريجُه (ص ٧٠).

(٢) سيأتي التنبيه على الأحاديثِ الواردةِ في ذلكَ.

١- وُجوب لزوم جماعةِ المُسلمينَ وطاعة أئمتِهم ولو عصوا؛ ألم تسمع رسولَ اللهِ يقولُ في روايةٍ:

قلتُ: كيفَ أصنعُ يا رسولَ اللهِ إن أدركني ذلكَ؟

قالَ: «تسمعُ وتُطيعُ الأميرَ، وإن ضربَ ظهرَكَ، وأخذَ مالكَ، فاسمع وَأطِع»(١).

وهذا أمرٌ جَهِلَه كثيرٌ من المُسلمينَ عندما رأوا فسادَ وظلمَ الخلفاءِ المُتأخرينَ في دولةِ الخلافةِ؛ فسعوا للتحالفِ مع الكفرةِ؛ لإزالةِ دولةِ الخلافةِ.

وتناسوا أنّه لا يَجوزُ الخُروجُ على الأئمّةِ ما لم يروا الكفرَ البواحَ والشركَ الصُراحَ الَّذي عندهم عليه من اللهِ بُرهانٌ يقرره ربّانيو الأمّة ضمن قواعد فقه الدّعوة المستنبط من الكتاب، والسنة، ومواقف سلف الأمة.

٢- فإن لم يَكن للمسليمنَ جماعةٌ ولا إمامٌ، فعلى المُسلمِ أن يَعتزلَ فرقَ الضلالةِ وأحزابَ الفرقةِ.

٣- اعتزال فرق الضلالة لا يعني العزلةَ المطلقةَ الَّتي يُتركُ فيها الباطلُ يَصولُ ويَجولُ دونَ مُنازعٍ؛ بل على المسلمينَ التمسك بأصولِ هذا الدينِ كتاباً وسنةً، وفهمهما بفهمِ صحابةِ رسولِ اللهِ ومن سارَ على دربِهم من أئمةِ الهدى، ودعوة البشريّةِ لهذينِ الأصلينِ العَظيمينِ اللّذين سَيحكمانِ الأرضَ ومن عليها، ولتعلمنَّ نبأه بعدَ حينٍ، لأنَّ وُجودَ فرقِ الضلالةِ لا يَعني خُلوَّ الأرضِ من قائمٍ للهِ بحجّةٍ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ أخبرَ في أحاديثَ متواترةٍ عن وُجودِ طائفةٍ تَحملُ الحقَّ في كلِّ العُصورِ حتَّى يأتِيَ أمرُ اللهُ وهم على ذلكَ لا يَضرُّهم من خالفَهم أو خذلَهم.

□□□□□

---

(١) أخرجه مسلم (١٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧ - نووي).

ضوءٌ على طريقِ الصّحوةِ الإسلاميّةِ

١- واقعُ الأمّةِ الإسلاميّةِ المُعاصرُ موصوفٌ بحروفٍ بارزةٍ في السُّنّةِ المُطهرةِ، ولذلكَ فعلى مُنظري العملِ الإسلاميّ المعاصر أن يَكونوا علماءَ بالكتابِ والسنةِ، ولا يتركوا تَقديرَ الأمورِ لتجاربِهم وعُقولِهم وإلهاماتِهم.

ولذلكَ فوجودُ ما يُسمّى بعلماءِ فقه الحركةِ، أو فقهاء الواقعِ الجاهلينَ بالكتابِ والسنّةِ هو ابتعادٌ بالجماعاتِ العاملةِ في ميدانِ الدعوةِ إلى اللهِ عن مصدرِ عزّتِها، وينبوعِ هدايتِها.

٢- يجبُ على عُلماءِ الكتابِ والسنّةِ أن يأخذوا مكانَهم في توجيه العاملينَ للإسلامِ، فهم قادةُ هذه الأمةِ وسادتُها، فإذا رَكنوا إلى الدنيا، وتخلّفوا عن الرَّكبِ، فمن يُوجّه هذا الطوفانَ الهادرَ من شبابِ الإسلامِ الّذي يَرنو ببصرِه لعزّةِ الإسلامِ وسيادتِه؟

٣- لا بُدَّ من تصفيةِ الإسلامِ من الدَّخنِ الّذي عكّرَ صفوَه، وكدَّرَ معينَه، ليعودَ يتلألأُ نقيّاً في ثوبِ الرسالةِ.

٤- لا بدَّ من تربيةِ جيلِ الصَّحْوَةِ؛ كما رَبَّى رسولُ اللهِ ﷺ جيلَ القُدْوَةِ.

٥- لا بدَّ من تضافرِ جُهودِ جميعِ العاملينَ للإسلامِ؛ لكي تصبَّ في اتجاهِ إيجادِ جماعةِ المسلمينَ الّتي تؤلّفُ بينَ المُسلمينَ جميعاً.

٦ - نقطةُ اللقاءِ بينَ العاملينَ للإسلامِ، وقاعدةُ الإرتكازِ لإيجادِ جماعةِ المُسلمينَ هي مرحلةُ الخيرِ الخالصِ، وهي ما كانَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه.

وأرجو اللهَ أن يُوفقَ المُخلصينَ لإيجادِ جماعةِ المُسلمينَ الّتي تَقتفي أثرَ رسولِ اللهِ وصحابتِه، لتعودَ دولةُ الإسلامِ تخفقُ رايتَها من جديدٍ، ويومئذٍ يَفرحُ المؤمنونَ بنصرِ اللهِ، واللهُ يتولّى الصالحينَ.

ولا يحققُ ذلكَ إلّا اتباعُ المنهجِ السّلفيِّ.

السَّلفُ والسَّلفيَّةُ لغةً واصطلاحاً وزماناً

نَبغي لسالكِ المنهجِ السلفيِّ على بصيرةٍ - وهذا شرطه: ﴿ قُل هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ عَلى بَصيرةٍ أناَ ومن اتبعني وسبحانَ اللهِ وما أنا من المُشركينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] - أن يَعلمَ أنَّ مدلولَ هذهِ الكلمةِ ومشتقاتها يَعلو على آصارِ الحزبيّةِ المميتةِ، ويسمو فوقَ دهاليزِ السِّريّةِ المقيتةِ؛ لأنَّها واضحةٌ كالشمسِ في رائعةِ النهارِ: ﴿وَمَنْ أحسنُ قولاً ممّن دَعا إلى اللهِ وعملَ صالحاً وقالَ إنّني من المُسلمينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وهذه الكلمةُ من حيثُ «اللغةُ» تدلُّ على من تقدَّمَ وسبقَ بالعلمِ والإيمانِ والفضلِ والإحسانِ.

قالَ ابنُ منظورٍ في «لسانِ العربِ» (٩ / ١٥٩):

«والسَّلفُ أيضاً مَنْ تَقدَّمكَ من آبائكَ وذوي قرابتِكَ الَّذين هم فوقَكَ في السِّنِّ والفضلِ، ولهذا سمي الصدرُ الأوّلُ من التابعينَ السَّلفَ الصَّالحَ».

قلت: ومنه قولُ رسولِ اللهِ ﷺ لابنتِه فاطمةَ الزهراءِ رضي اللهُ عنها: «فإنّه نعمَ السّلفُ أنا لكِ»[١].

وروي عن النبيِّ ﷺ قولُه لابنتِه زينبَ رضي اللهُ عنها عندما توفيت: «الحقي بسلفِنا الصالحِ عثمان بنِ مَظعونَ»[٢].

أمّا «الاصطلاحُ»؛ فهو وصفٌ لازمٌ يَختصُّ عندَ الاطلاقِ بالصحابةِ رضي اللهُ عنهم، ويشاركُهم فيه غيرُهم تبعاً واتباعاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٠) (٩٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (١ / ٢٣٧ - ٢٣٨)، وابنُ سعدٍ في «الطبقاتِ» (٨ / ٣٧)، وصححه الشيخُ أبو الأشبال أحمد شاكر رحمه اللهُ في «شرحِ المسندِ» (٣١٠٣) فلم يُصب، وأعلَّه شيخنا حفظه اللهُ في «الضعيفةِ» (١٧١٥) بعلي بنِ زيد بنِ جدعانَ.

قالَ القلشانيُّ في «تحريرِ المقالةِ من شرحِ الرسالةِ» (ق ٣٦):

«السَّلفُ الصالحُ وهو الصدرُ الأوّلُ الرَّاسخونَ في العلمِ، المهتدونَ بهدي النبيِّ ﷺ، الحافظونَ لسنتِهِ؛ اختارهم اللهُ تعالى لصحبةِ نبيّهِ، وانتخبَهم لإقامةِ دينِهِ، ورضيهم أئمة الأمّةِ، وجاهدوا في سَبيلِ اللهِ حقَّ جهادِهِ، وأفرغوا في نصحِ الأمةِ ونفعها، وبذلوا في مرضاةِ اللهِ أنفسَهم.

قد أثنى اللهُ عليهم في كتابِهِ بقولِهِ: ﴿**محمد رسولُ اللهِ والَّذينَ معه أشداءُ على الكفّارِ رُحماءُ بينَهم**﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿**للفقراءِ المهاجرينَ الَّذينَ أُخرجوا من ديارِهم وأموالِهم يَبتغونَ فضلاً من اللهِ ورضواناً وينصرونَ الله ورسولَه أولئكَ هم الصادقونَ**﴾ الآية [الحشر: ٨].

وذكرَ تعالى فيها المهاجرينَ والأنصارَ ثمَّ مدحَ إتباعَهم، ورضي ذلكَ ومن الذين جاءوا من بعدِهم.

وتوعدَ بالعذابِ من خالفَهم واتبعَ غيرَ سبيلِهم فقالَ: ﴿**ومن يشاققِ الرَّسولَ من بعدِ ما تبيَّنَ له الهُدى**﴾ الآية [النساء: ١١٥].

فيجبُ اتباعُهم فيما نَقلوه، واقتفاءُ أثرِهم فيما عَملوه، والاستغفارُ لهم.

قالَ تعالى: ﴿**والَّذينَ جاءوا من بعدِهم**﴾ [الحشر: ١٠]» أ.هـ

وأقرَّ أهلُ الكلامِ قديمُهم وحديثُهم بهذا الاصطلاحِ.

قالَ الغزاليُّ في «إلجام العوام عن علمِ الكلامِ» (ص ٦٢) مُعَرِّفاً كلمةَ السلفِ:

«أعني مذهبَ الصحابةِ والتابعينَ».

وقالَ البيجوريُّ في «شرحِ جوهرة التوحيدِ» (ص ١١١):

«والمرادُ بمن سلفَ من تقدَّمَ من الأنبياءِ والصحابة والتابعينَ وتابعيهم».

وقد تناقلَ أهلُ العلمِ في القرونِ المفضّلةِ هذا المصطلحَ للدلالةِ على عصرِ الصحابةِ ومنهجِهم:

١ - قالَ البخاريُّ (٦ / ٦٦ - فتح) قالَ: راشد بنُ سعدٍ: «كانَ السَّلفُ يستحبون الفحولةَ؛ لأنَّها أجرى وأجسرُ».

قالَ الحافظُ ابن حجرٍ رحمه اللهُ مُفسراً كلمةَ السَّلفِ: «أي: مَن الصحابةِ ومن بعدِهم».

قلتُ: المرادُ الصحابةُ رضي اللهُ عنهم لأنَّ راشد ابنَ سعدٍ تابعيٌّ، فالسلفُ عندَه هم الصحابةُ لا ريبَ.

٢ - قالَ البخاريُّ (٩ / ٥٥٢ - فتح): «باب ما كانَ السَّلفُ يدّخرونَ في بيوتِهم وأسفارِهم من الطعامِ واللَّحمِ وغيرِهِ».

قلتُ: المرادُ الصحابةُ رضي اللهُ عنهم.

٣ - قالَ البُخاريُّ (١ / ٣٤٢ - فتح): «وقالَ الزُّهريُّ في عظامِ الموتى - نحو الفيلِ وغيرِهِ - أدركتُ ناساً من سلفِ العُلماءِ يمتشطونَ بها ويدَّهنونَ فيها، لا يَرونَ بأساً».

قلتُ: المُرادُ الصحـ رضي اللهُ عنهم، لأن الزهريَّ تابعي.

٤ - أخرجَ مسلمٌ في مقدمةِ «صحيحه» (ص ١٦) من طريقِ محمد بنِ عبداللهِ قالَ: سمعتُ عليَّ بنَ شقيقٍ يقولُ: سمعتُ عبدَاللهِ بنَ المُباركِ يقولُ - على رؤوسِ الناسِ:

«دعوا حديث عمرو بن ثابتٍ؛ فإنَّه كانَ يَسُبُّ السَّلفَ».

قلتُ: المرادُ الصَّحابة رضي اللهُ عنهم.

٥ - قالَ الأوزاعيُّ: «اصبرْ نفسَكَ على السُّنّةِ، وقفْ حيثُ وقفَ القومُ، وقلْ بما قالوا وكفَّ عمَّا كفّوا عنه، واسلكْ سبيلَ سلفِكَ الصالحِ؛ فإنَّه يسعكَ ما وسعهم»(١).

قلتُ: المرادُ الصحابةُ رضوانُ اللهِ عليهم.

ولذلكَ فكلمةُ «السَّلفِ» اكتسبت هذا المعنى الاصطلاحيَّ والّذي لا يَتجاوزه إلى غيرِهِ.

---

(١) أخرجه الآجريُّ في «الشريعةِ» (ص ٥٨).

أمّا من حيثُ «الزّمان» فهي تستعملُ للدلالةِ على خيرِ القرونِ وأولاها بالاقتداءِ والاتباعِ، وهي القرونُ الثلاثةُ الأولى المشهودُ لها بالخيريّةِ على لسانِ خيرِ البريّةِ محمد ﷺ بقولِهِ:

«خَيرُ النَّاس قرني، ثمَّ الّذينَ يَلونَهم، ثمَّ الّذينَ يَلونَهم، ثمَّ يَجيءُ أقوامٌ تسبقُ شهادةُ أحدِهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه»[1].

ولكنَّ التحديدَ الزمنيَّ غيرُ دقيقٍ لحصرِ مفهومِ السلفِ حيثُ نرى كثيراً من الفرقِ الضالّةِ والبدعِ قد أطلّت برؤوسِها في تلكَ الفترةِ الزمنيّةِ، لذلكَ فوجودُ الإنسانِ في ذلك العصرِ لا يَكفي للحكمِ عليه بأنّه على منهجِ السلفِ ما لم يَكن مُوافقاً للصحابةِ رضي اللهُ عنهم في فهمِ الكتابِ والسُّنّةِ، ولذلكَ يقيدُ العُلماءُ هذا المُصطلحَ بـ «السَّلفِ الصالحِ».

وبهذا يَظهرُ أنَّ مصطلحَ «السلفِ» حين يُطلقُ لا يُصرفُ إلى السبقِ الزمنيِّ فقط، بل إلى أصحابِ النَّبيِّ ﷺ ومن تبعِهم بإحسانٍ.

وعلى هذا الاعتبار استقرَّ مصطلحُ «السلفِ»؛ فهو يُطلقُ على من حافظَ على سلامةِ العقيدةِ والمنهجِ على ما كانَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه قبلَ الاختلافِ والافتراقِ.

وأمّا «السلفيّةُ» فهي نسبةٌ إلى «السلفِ»، وهو انتسابٌ محمودٌ إلى منهجٍ سديدٍ، وليسَ ابتداعَ مذهبٍ جديدٍ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ رحمه اللهُ في «مجموع الفتاوى» (٤ / ١٤٩):

«ولا عيبَ على من أظهرَ مذهبَ السَّلفِ وانتسبَ إليه واعتزى إليه، بل يَجبُ قَبولُ ذلكَ منه بالاتفاقِ، فإنّ مذهبَ السَّلفِ لا يَكونُ إلّا حقّاً».

وقد يَظنُّ بعضُ الناسِ ممّن يَعرفونَ ولكنّهم يَحرفونَ عند ذكرِ «السلفيّةِ»: أنّها إطارٌ جديدٌ لجماعةٍ إسلاميّةٍ جديدةٍ انتزعت نفسَها من قلبِ دائرةِ الجماعةِ الإسلاميّةِ الواحدةِ، وهي تتخذُ لنفسِها من معنى هذا العنوانِ وحده مفهوماً مُعيّناً، فتمتازُ عن

---

(١) وهو حديثٌ متواترٌ سيأتي إن شاءَ اللهُ تخريجُه (ص ٨٧).

بقيةِ المُسلمينَ بأحكامِها وميولاتِها بل تختلفُ عنهم حتَّى بمزاجِها النفسي ومقاييسها الأخلاقيّة(١).

وليسَ لذلكَ واقعٌ ألبتةَ في المنهجِ السلفي؛ إذ السَّلفيَّةُ تعني: الإسلامَ المُصفّى من رواسبِ الحضاراتِ القديمةِ، وموروثاتِ الفرقِ العديدةِ بكماله وشُمولِه كتاباً وسنّةً بفهمِ السلفِ الممدوحينَ بنصوصِ الكتابِ والسنّةِ.

وهذا الظنُّ إنَّما صنعته أوهامُ قومٍ نَفروا من هذه الكلمةِ الطيبةِ المُباركةِ الَّتي أصلُها ضاربٌ في جذورِ تاريخِ هذه الأُمّةِ حتّى تلتقي بالصدرِ الأوّلِ... حتَّى زَعموا أنَّ هذه الكلمةَ وليدةُ حركةِ الإصلاحِ الّتي حملَ لواءَها كلٌّ من جمالِ الدينِ الأفغانيّ ومحمد عبده أيّامَ الاحتلالِ الانجليزي لمصر(٢)(!).

وقائلُ هذا الوهمِ أو ناقلُه يجهلُ تاريخَ هذه الكلمةِ الموصولةِ بـ «السلفِ

---

(١) انظر ما كتبه الدكتورُ البوطيّ في كتابه: «السَّلَفيّة مرحلةٌ زمانيّةٌ مُباركةٌ لا مذهبٌ إسلاميٌّ».
وهذا الكتابُ ظاهره الرَّحمة وباطنه من قبلِه العذاب:
١ - حاولَ تَفليسَ السَّلفِ من منهجهم العلميّ في التلقي والاستدلال والاستنباط، وبذلك جعلهم بمنزلةِ الأميين الّذينَ لا يَعلمونَ الكتابَ إلّا أمانيّ.
٢ - جعل السلفيّةَ مرحلة تاريخيّة مضت وانقضت، ولن تَعودَ إلّا ذكريات وأُمنيات.
٣ - ادعى أنَّ الانتسابَ للسلفِ بدعة، فأنكرَ أمراً ملأَ سمع الزمان، وتناقله الركبان.
٤ - إلتفاف حولَ منهج السلف لتصحيح مذهبِ الخلفِ حيثُ آل أمرُه إلى اعتبارِ مذهب الخلف حرزاً من مُضلّات الهوى، فأخفى حقائقَ تاريخيّة أظهرت أن مذهب الخلف أدى إلى انهيار الشخصيّة المسلمة، وتمييع المنهج الإسلاميّ.
(٢) هذه الدّعوى عليها مؤاخذاتٌ عدّة:
١- الحركة الّتي تبناها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ليست سلفيّة، وإنّما عقليّة خلَفيّة حيث جعلوا العقل هو الآمر النّاهي على النّقل.
٢- ظهرت دراسات كثيرة حول حقيقة الأفغاني ودوافعه تلقي شبهاً كثيرة حول الرجل مما يجعل التابع لسيرته في ترقبٍ وحذر منه.
٣- أكّدت الحقائق التاريخيّة ارتباط محمد عبده بالماسونية، وقد اعتُذر عنه بأنه خدع بها ولم يعلم حقيقتها.
٤- إنّ ربط السلفية بحركة الأفغاني ومحمد عبده اتهام لها ولو من طرفٍ خفي بما رمي به هؤلاء من ارتباطات مشبوهة، ودوافع غامضة.

الصالح»؛ معنى واشتقاقاً وزماناً، فلقد كانَ أهلُ العلمِ الأوّلونَ يَصفونَ كلَّ متبع لفهمِ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم في العقيدةِ والمنهجِ بأنَّه سلفيٌّ.

فهذا مؤرّخُ الإسلامِ الحفظةُ الإمامُ الذهبيُّ في «سيرِ أعلامِ النبلاءِ» (١٦ / ٤٥٧) يَنقلُ مَقولةَ الحافظِ الدارقطنيّ: «ما شيءٌ أبغضُ إليَّ من علمِ الكلامِ».

ثمَّ يَقولُ: «لم يَدخل الرَّجلُ أبداً في علمِ الكلامِ ولا الجدالِ، ولا خاضَ في ذلكَ، **بل كانَ سلفيّاً**».



شبهات وتصحيحها

١- هل التسميةُ بـ «السَلفيّةِ» بدعة؟

قالَ بعضُهم: إنَّ التسميةَ بالسلفيّةِ بدعةٌ؛ لأنَّ الصحابةَ في عصرِ الرَّسولِ ﷺ لم يَتسموا بها؟

○ **والجوابُ**: لم تكن كلمةُ «السلفيّة» تُطلقُ على عصرِ الرَّسولِ ﷺ وأصحابِهِ؛ لأنَّه لم يَكن هناكَ حاجةٌ؛ فالمسلمونَ الأوّلونَ كانوا على الإسلامِ الصحيحِ، فلم يَكن حاجةٌ لكلمةِ السلفيّةِ لأنّهم كانوا عليها سَليقةً وفطرةً كما كانوا يَتكلّمونَ العربيةَ الفصيحةَ دونَ لحنٍ أو خطأٍ، فلم يَكن علمُ النحوِ والصرفِ والبلاغةِ حتّى ظَهرَ اللّحنُ فظهرَ هذا العلمُ الّذي يَضبطُ عوجَ اللّسانِ، وكذلكَ لمّا ظهرَ الشذوذُ والانحرافُ عن جماعةِ المُسلمينَ بدأَت تَظهرُ كلمةُ«السَّلَفِيّة» على الواقعِ، وإنْ كانَ الرَّسولُ ﷺ نبّه على معناها في حديثِ الافتراقِ بقولِه: «ما أنا عليه اليومَ وأصحابي»

ولمّا كثرت الفرقُ وادعت كلُّها السيرَ على الكتابِ والسنّةِ قامَ عُلماءُ الأمّةِ بتمييزها أكثرَ فقالوا: أهلُ الحديثِ والسلفِ.

ولذلكَ تميزت «السلفيّةُ» عن جَميعِ الطوائفِ الإسلاميّةِ الأخرى بانتسابها إلى أمرٍ ضَمنَ لهم السيرَ على الإسلامِ الصحيحِ ألا وهو: **التمسكُ بما كانَ عليه أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ المهاجرونُ والأنصارُ والّذينَ اتبعوهم بإحسانٍ، وهم أهلُ القرونِ المشهودُ لهم بالخيريةِ.**

٢- قيلَ: لِمَ ننسب أنفسَنا إلى السَّلفِ، واللهُ يَقولُ ﴿هو سمّاكم المسلمينَ من قبلُ﴾ [الحجّ: ٧٨]؟

ونسوقُ للقارئِ الكريمِ تلكَ المحاورةَ اللّطيفةَ بينَ شيخِنا حفظه اللهُ والأُستاذ عبد الحليم أبو شقة مؤلف كتابِ «تحرير المرأةِ في عصر الرسالة»:

قالَ الشيخُ: إن قيلَ لكَ ما مذهبُكَ فما أنتَ قائل؟

قالَ: مسلمٌ.

قالَ الشيخُ: هذا لا يَكفي (!)

قالَ: لقد سمّانا اللهُ المُسلمينَ، وتلا قولَه تعالى: ﴿هو سمّاكم المسلمينَ من قبلُ﴾ [الحج: ٧٨].

قالَ الشيخُ: هذا جوابٌ صحيحٌ لو كُنّا في العهدِ الأوّلِ قبلَ انتشارِ الفرقِ، فلو سألنا - الآنَ - أيَّ مسلم من هذه الفرقِ الّتي نَختلفُ معها جذريّاً في العقيدةِ لما اختلفَ جوابُه عن هذه الكلمةِ، فكلُّهم يَقولُ: - الشيعيُّ الرّافضيُّ، والخارجيُّ، والدرزيُّ، والنصيريُّ العلويُّ - أنا مسلمٌ؛ إذاً هذا لا يَكفي في هذهِ الأيامِ.

قالَ: إذاً أقولُ: أنا مسلمٌ على الكتابِ والسنّةِ.

قالَ الشيخُ: أيضاً هذا لا يَكفي (!)

قالَ: لماذا؟

قالَ الشيخُ: هل تَجدُ واحداً من هؤلاءِ الّذينَ ضربناهم مثلاً يَقولُ: أنا مسلمٌ لستُ على الكتابِ والسنّةِ... فمن الّذي يَقولُ: أنا لستُ على الكتابِ والسنّةِ.

ثمّ أخذَ الشيخُ - حفظه اللهُ - يُبيّنُ له أهميّةَ الضميمةِ الّتي نتبنّاها وهي: الكتابُ والسنّةُ بفهمِ سلفِنا الصالحِ.

قالَ: إذاً أنا مسلمٌ على الكتابِ والسنةِ بفهم السلفِ الصالحِ.

قالَ الشيخُ: إذا سألكَ سائلٌ عن مذهبِكَ فهل تَقولُ له ذلكَ؟

قالَ: نعم

قالَ الشيخُ: ما رأيك أن نَختصرَها لغةً؛ لأنَّ خيرَ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ؛ فنقولُ: سلفيّ

قالَ: قد أُجاملُكَ، وأقولُ لكَ: نعم؛ لكن اعتقادي ما سبقَ؛ لأنَّ أوّلَ ما ينصرفُ فكرُ الإنسانِ عندما يَسمعُ أنّكَ سلفيٌّ إلى أشياءَ كثيرةٍ من ممارساتٍ فيها شدّةٌ تَصلُ إلى الغلظةِ قد تقعُ من السّلفيينِ.

قالَ الشيخُ: هب صحةَ كلامِكَ، فإذا قُلتَ: مسلمٌ، ألا ينصرفُ إلى شيعيٍّ رافضيٍّ أو درزيٍّ أو إسماعيليٍّ. . .إلخ؟

قالَ: من المُمكنِ لكنّي أكونُ قد اتبعتُ الآيةَ الكريمةَ: ﴿هو سمّاكم المُسلمينَ﴾.

قالَ الشيخُ: لا يا أخي! إنَّكَ لم تتبع الآيةَ؛ لأنَّ الآيةَ تَعني: الإسلام الصحيح، يَنبغي أن يُخاطبَ الناسُ على قدرِ عُقولِهم. . . فهل يفهم أحدٌ منكَ أنَّكَ مسلمٌ بالمعنى المرادِ في الآيةِ؟

والمحاذيرُ الَّتي ذكرتَها آنفاً قد تَكونُ صحيحةً أو غيرَ ذلكَ؛ لأنَّ قولَكَ شدة قد يَكونُ هذا في بعضِ الأفرادِ وليسَ كمنهجٍ عقديٍّ علميٍّ، فدعكَ من الأفرادِ؛ لأنّنا نتكلَّمُ عن المنهجِ، لأننا إذا قُلنا: شيعيٌّ أو درزيٌّ أو خارجيٌّ أو صوفيٌّ أو معتزليٌّ تَردُ المحاذيرُ التي ذَكرتَها.

إذاً فليسَ هذا موضوعنا؛ فنحنُ نبحثُ عن اسمٍ يَدلُّ على مذهبِ الإنسانِ الَّذي يَدينُ اللهَ به.

ثمَّ قالَ الشيخُ: أليسَ الصحابةُ كلُّهم مسلمينَ؟

قالَ: طبعاً.

قالَ الشيخُ: لكن فيهم من سرقَ، وزنى، وهذا لا يُسَوِّغُ لأحدِهم أن يَقولَ: أنا لستُ مسلماً بل هو مسلمٌ ومؤمنٌ باللهِ ورسولِهِ كمنهجٍ، لكنَّه قد خالفَ منهجَه أحياناً؛ لأنَّه غير معصوم.

ولذلكَ؛ فنحنُ - باركَ اللهُ فيكَ - نتكلَّمُ عن كلمةٍ تدلُّ على عقيدتنا وفكرنا ومنطلقنا في حياتنا فيما يتعلَّقُ بشؤونِ ديننا الّذي نعبدُ اللهَ به، وأمّا فلانٌ متشددٌ أو متساهلٌ فأمرٌ آخر.

ثمَّ قالَ الشيخُ: أُريدُ أن تُفكرَ في هذه الكلمةِ الموجزةِ حتّى لا تَبقى مُصِّراً على كلمةِ مسلمٍ، وأنتَ تعلمُ أنَّه لا يُوجدُ أحدٌ يَفهم منكَ ما تُريده أبداً، فإذاً خاطِبِ الناسَ على قدرِ عُقولِهم، وباركَ اللهُ لكَ في تلبيتك.

السَّلفيّةُ والفِرقةُ النّاجيةُ والطائفةُ المَنْصورةُ

١- الفرقة الناجية والطائفة المنصورة:

والكلامُ في الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ وعليها من وُجوهٍ:

□ أوّلاً: الأحاديثُ النَّبويّةُ في النَّهي عن افتراقِ الأمّةِ الإسلاميّةِ:

عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«افترقت اليهودُ على إحدى وسبعينَ فرقةً أو اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، وتفرَّقت النّصارى على إحدى أو اثنتينِ وسبعينَ فرقةً، وتفترقُ أُمتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فرقةً»[١].

وفي البابِ عن جماعةٍ من الصحابةِ رضي اللهُ عنهم:

أ - عن مُعاويةَ رضي اللهُ عنه، وفي حديثه زيادةُ:

«وإنَّه سيخرجُ في أُمتي قومٌ تتجارى بهم الأهواءُ كما يَتجارى الكَلَبُ بصاحبِهِ، لا يَبقى منه عِرقٌ ولا مِفصَلٌ إلّا دَخلَه»[١].

ب- عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه، وفي حديثه زيادةُ:

«كلّها في النارِ إلّا واحدةً، وهي الجماعة»[٢].

ت- عن عوف بن مالك رضي اللهُ عنه[٣]، وفيه زيادة نحو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ث- عن أبي أمامةَ الباهليّ رضي اللهُ عنه في قصّةٍ طويلةٍ، وفي حديثه زيادةُ: «السّواد الأعظم»[٤] -أي النّاجية-.

---

(١) حسن؛ كما بينته في: «نُصح الأمّةِ في فهم أحاديثِ افتراقِ الأُمّةِ» (ص ٩-١٠).

(١) حسن؛ انظر المصدر السابق (ص ١٠ - ١١).

(٢) حسن بشواهده؛ المصدرُ السابق (ص ١٢- ١٨).

(٣) حسن؛ المصدر السابق (ص ١٨-١٩).

(٤) حسن؛ المصدر السابق (ص ١٩ - ٢١).

جـ- عن سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ رضي اللهُ عنه[١]، وفيه زيادةٌ نحو حديثِ أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه.

حـ- حديثُ عبدِاللهِ بن عمرو بنِ العاصِ رضي اللهُ عنهما وفيه زيادةٌ: «ما أنا عليه اليومَ وأصحابي»[٢].

وفي البابِ عن عمروِ بنِ عوفٍ المُزَني، وأبي الدَّرداءِ، وأبي أُمامةَ، وواثلةَ بنِ الأسقعِ، وأنسِ بنِ مالكٍ - مجتمعينَ في حديثٍ واحدٍ[٣].

ومن هذه الأحاديثِ جاءَ وصفُ الفرقةِ الباقيةِ على الأصلِ الّتي عضّت على السنّةِ بنواجذِها بـ «الناجية»؛ لأنّها نَجت من الخلافِ، وستنجو بإذنِ اللهِ من النارِ.

□ ثانياً: أحاديث الطائفة المنصورة:

١- عن معاويةَ رضي اللهُ عنه قالَ: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ:

«لا يَزالُ من أمتي أمّةٌ قائمةٌ بأمرِ اللهِ لا يَضرُّهم من خَذَلَهم، ولا من خَالَفَهم حتَّى يأتي أمرُ اللهِ وهم على ذلكَ»[٤].

قالَ عُمير - أحدُ رواةِ الحديث -: قالَ مالكُ بنُ يَخامر: قالَ مُعاذٌ: «هم بالشامِ».

قالَ معاوية: هذا مالكٌ يزعمُ أنَّه سمعَ معاذَ بنَ جبلٍ يَقولُ: «هم بالشّامِ».

٢- حديثُ المغيرةِ بنِ شعبةَ رضي اللهُ عنه بلفظ:

«لا يَزالُ ناس من أُمتي ظاهرينَ حتَّي يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم كذلكَ»[٥].

---

(١) **ضعيفٌ**؛ المصدر السابق (ص ٢١ -٢٢)

(٢) **حسن بشواهدِه**؛ كما بينته في جزءٍ مفردٍ: «درءُ الارتيابِ عن حديثِ ما أنا عليه والأصحابُ».

(٣) وأسانيدها واهية جدّاً؛ كما بينتُها في: «نصح الأمّةِ في فهمِ أحاديثِ افتراقِ الأمّةِ» (ص ٢٢، ٢٧).

(٤) **متفقٌ عليه**، وله عن مُعاويةَ ثمانيةُ طرقٍ خرَّجتُها في: «اللآلئ المنثورة بأوصافِ الطائفةِ المنصورةِ» (١).

(٥) **متفقٌ عليه**، وانظر المصدر السابقَ (٢).

٣- حديثُ عمرَ بنِ الخطّابِ رضي اللهُ عنه بلفظ:

«لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الحقِّ حتَّى تَقومَ الساعةُ»(١).

٤- حديث ثوبان رضي الله عنه بلفظ:

«لا تَزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يضرُّهم من خذَلَهم حتّى يأتي أمرُ اللهِ وهم كذلكَ»(٢).

٥ - حديث عِمران بن حُصينٍ رضي اللهُ عنهما بلفظ:

«لا تَزالُ طائفةٌ من أمتي يُقاتلونَ على الحقِّ ظاهرينَ على من ناوأَهم حتّى يُقاتلَ أخرُهم المسيحَ الدَّجالَ»(٣).

٦- حديثُ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رضي اللهُ عنه بلفظ:

«لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يُقاتلونَ على الحقِّ إلى يومِ القيامةِ، قالَ: فينزلُ عيسى بنُ مريمَ فيقولُ أميرُهم: تعالَ صلِّ لنا، فيقولُ: لا إنَّ بعضَكم على بعضٍ أميرٌ؛ تَكْرِمَةَ اللهِ عزَّ وجلَّ لهذه الأُمةِ»(٤).

٧- حديث سلمةَ بنِ نُفيل رضي اللهُ عنه بلفظ:

«الآن جاءَ القتالُ؛ لا تَزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الناسِ يرفعُ اللهُ قلوبَ أقوامٍ فيقاتلونَ ويرزقهم اللهُ عزَّ وجلَّ وهم على ذلكَ، ألا إنَّ عقرَ دارِ المؤمنينَ بالشامِ، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يومِ القيامةِ»(٥).

٨ و٩- حديثُ عبدِاللهِ بنِ عمرٍو وعُقبة بنِ عامرٍ رضي اللهُ عنهم بلفظ:

«لا تَزالُ عُصابةٌ من أُمتي يُقاتلونَ على أمرِ اللهِ ظاهرينَ لا يَضرُّهم من خالفَهم حتَّى تأتيَهم السَّاعةُ وهم على ذلكَ»(٦).

---

(١) صحيح على شرط الشيخينِ، كما بينته في المصدرِ السابقِ (٣).
(٢) أخرجه مسلمٌ (٣ / ٦٥ - نووي)، وانظر المصدر السابق (٤).
(٣) صحيح كما بينتُه في المصدر السابق (٥).
(٤) أخرجه مسلمٌ (٢ / ١٩٣ - ١٩٣ -نووي)، وانظر المصدر السابق (٦).
(٥) صحيح على شرط مسلم؛ كما بينته في المصدر السابقِ (٧).
(٦) أخرجه مسلمٌ (١٣ / ٦٧ - ٦٨ - نووي)، وانظر المصدر السابق (٩).

١٠- حديثُ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه بلفظ:

«لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي قوَّامةً على أمرِ اللهِ لا يَضرُّها من خالفَها»(١).

١١- حديث قُرَّةَ رضي اللهُ عنه بلفظ:

«إذا فسدَ أهلُ الشام فَلا خيرَ فيكم، لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي منصورينَ لا يَضرُّهم من خالفَهم حتَّى تَقومَ الساعةُ»(٢).

١٢- حديثُ جابرِ بنِ سَمُرةَ رضي اللهُ عنه بلفظ:

«لن يَبرحَ هذا الدينُ قائماً يُقاتلُ عليه عُصابةٌ من المُسلمينَ حتّى تَقومَ الساعةُ»(٣).

١٣- حديثُ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ رضي اللهُ عنه بلفظينِ:

الأوّلُ: «ولا تَزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الدينِ عزيزةً إلى يوم القيامةِ».

الثاني: «لا يَزالُ أهلُ المغربِ ظاهرينَ على الحقِّ حتَّى تَقومَ السَّاعةُ»(٤).

١٤- حديث أبي عِنَبةَ الخَوْلانيِّ رضي اللهُ عنه بلفظٍ:

«لا يَزالُ اللهُ يَغرسُ في هذا الدينِ غرساً يستعملُهم في طاعتِه إلى يومِ القيامةِ»(٥).

وعلى الجُملةِ؛ فأحاديثُ الطائفةِ المنصورةِ متواترةٌ؛ كما نصَّ على ذلكَ جماعةٌ من أهلِ العلمِ؛ منهم شيخُ الإسلام ابنِ تيميّةَ في: «اقتضاءِ الصراطِ المستقيم» (ص ٦)، والسيوطيُّ في: «الأزهارِ المتناثرةِ» (٩٣)، وشيخُنا الألبانيُّ حفظه اللهُ في «صلاةِ العيدينِ» (ص ٣٩ - ٤٠) وغيرُهم.

ومن هذه الأحاديثِ جاءَ وصفُ الطائفةِ بـ «**المنصورة**» **لأنها ظاهرة على الحق**

---

(١) **صحيح بطرقه**؛ كما بينته في المصدرِ السابق (١٠).
(٢) **صحيح على شرطِ الشيخينِ**؛ كما بينته في المصدرِ السابقِ (١١).
(٣) أخرجه مسلمٌ (١٣ / ٦٦ - نووي)، وانظر المصدر السابقَ (١٢).
(٤) أخرجه مسلمٌ (١٣ / ٦٨ - نووي)، وانظر لزاماً المصدر السابقَ (١٣).
(٥) **حسن**؛ كما بينته في المصدرِ السابق (١٥).

ثابتة عليه؛ ولأنّ اللهَ يكلؤُها برعايتِه، ويصنعُها على عينِه حتّى يأتِيَ أمرُه وهم كذلكَ.

□ **ثالثاً: أوصافُ الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ هل بينها تَعارضٌ وتغايرٌ؟**

وردتُ الأخبارُ الصحيحةُ عن رسولِ اللهِ ﷺ بتعيينِ أوصافِ الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ منهجاً وحالاً.

أمّا **المنهجُ** فقد وردت ثلاثةُ ألفاظٍ بتحديدِ ملامحِه:

١- «**ما أنا عليه وأصحابي**» كما في حديث عبدالله بنِ عمرو بنِ العاصِ رضي اللهُ عنهما.

٢- «**الجماعة** » كما في حديثِ أنسٍ وسعدٍ رضي اللهُ عنهما.

٣- «**السوادُ الأعظمُ**» كما في حديثِ أبي أُمامةَ رضي اللهُ عنه.

وهذه الألفاظُ النّبويّةُ الصَّحيحةُ تتفقُ ولا تفترقُ، وتأتلفُ ولا تختلفُ، وتجتمعُ ولا تمتنعُ؛ كما بيّنَ ذلكَ الآجريُّ رحمه اللهُ في كتابِه المُستطابِ: «الشَّريعة» (ص ١٤ - ١٥) فقالَ:

«ثمَّ إنَّه صلواتُ اللهِ وسلامه عليه سُئلَ: مَن النَّاجيةِ؟ فقالَ عليه الصلاةُ والسلام في حديثٍ: «ما أنا عليه اليومَ وأصحابي»، وفي حديثٍ: «السوادُ الأعظمُ» وفي حديثٍ: «واحدةٌ في الجنّةِ وهي الجماعةُ».

قلتُ أنا - القائلُ الآجُرِّي -: **ومعانيها واحدةٌ إن شاءَ اللهُ**».

قالَ أبو أسامة الهلاليّ: صدقَ وبرَّ؛ فالأمرُ كما قالَ؛ لأنَّ هذه الطائفةَ المنصورةَ هي الجماعةُ؛ لأنَّ الجماعةَ ما وافقَ الحقَّ ولو كنتَ وحدَكَ، كما عَرَّفها الصحابيُّ الجليلُ عبدُالله ابنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه.

عن عَمرِو بنِ ميمون الأَوْديّ رحمه اللهُ قالَ:

«قَدِمَ علينا معاذُ بنُ جَبلٍ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فوَقعَ حُبّه في قلبي، فلزمتُه حتّى واريته في التّرابِ بالشامِ، ثمّ لزمتُ أفقه الناسِ بعدَه عبدَالله بنَ مسعودٍ فذُكرَ يوماً عندَه تأخيرُ الصلاةِ عن وقتِها فقالَ:

«صلّوا في بيوتِكم واجعلوا صلاتكم معهم سُبحَةً».

قالَ عمروُ بنُ ميمون: فقيلَ لعبدِالله بنِ مسعودٍ: وكيفَ لنا بالجماعةِ؟

فقالَ لي: «يا عَمرو بنَ ميمون إنَّ جُمهورَ الجماعةِ هي الَّتي تُفارقُ الجماعة، إنَّما **الجماعةُ ما وافقَ طاعةَ اللهِ وإن كنتَ وحدَكَ**»(١).

وقد نَقلَه العلّامةُ أبو شامةَ في كتابِه المُستطابِ: «الباعث على إنكارِ البدعِ والحوادثِ» (ص ٢٢) محتجّاً به على قولِه:

«وحيثُ جاءَ الأمرُ بلزومِ الجماعةِ فالمرادُ به لُزومُ الحقِّ واتّباعُه، وإن كانَ المتمسّكُ به قَليلاً والمُخالفُ كَثيراً؛ لأنَّ الحقَّ الَّذي كانت عليه الجماعةُ الأولى من النَّبيِّ ﷺ وأصحابِه رضي اللهُ عنهم ولا نَظرَ إلى كثرةِ أهلِ الباطلِ بعدَهم (وذكرَه)».

واستحسنَ هذا الكلامَ العلّامةُ ابنُ قيّم الجوزيّة في كتابِه الفذِّ: «إغاثةُ اللهفان من مصائدِ الشيطان» (١ / ٦٩) فقالَ:

«وما أحسنَ ما قالَ أبو محمدُ بنُ إسماعيلَ المعروفُ بأبي شامةَ في كتابِه «الحوادث والبدعِ» (وذكره)».

قلتُ: لقد تبيّنَ لذي عينينِ أنَّ الجماعةَ هي ما وافقَ الحقَّ ولو كانَ وحدَه، وهذه الطَّائفةُ المنصورةُ وُصفت في أحاديثِ الرَّسولِ ﷺ بأنَّها ظاهرةٌ على الحقِّ، وكذلكَ لفظُ الطائفةِ يقعُ على الواحدِ فما فوقَ في لغةِ العربِ.

قالَ أديبُ الفقهاءِ وفقيه الأدباءِ ابنُ قتيبةَ الدِّينَوَري في كتابِه النَّافعِ الطَّيِّبِ «تأويل مختلف الحديث» (ص ٤٥):

«قالوا: وأقلُّ ما تكونُ الطَّائفةُ ثلاثةً وغَلِطوا في هذا القولِ؛ لأنَّ الطائفةَ تكونُ واحداً وثلاثاً وأكثرَ؛ لأنَّ الطّائفةَ بمعنى القطعةِ والواحد، وقد يكونُ قطعةً من

---

(١) أخرجه اللَّالكائيُّ في «شرحِ أُصولِ اعتقادِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ» (١٦٠)، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣ / ٣٢٢ / ٢).
وصححَ إسنادَه شيخُنا الألبانيّ في «مشكاةِ المصابيح» (١ / ٦١).

القومِ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وليَشهد عذابَهما طائفةٌ من المؤمنينَ﴾ يريدُ الواحدَ والاثنينِ» أ. هـ.

قلتُ: وهذا ما اتَّفقَ عليه أئمةُ اللّغةِ والدينِ كما بينته في كتابي «الأدلة والشواهد على وجوبِ الأخذِ بخبرِ الواحدِ في الأحكامِ العقائدةِ» (١ / ٢٣).

فَلا جَرَمَ أن تكونَ هذه الطائفةُ المنصورةُ هي الجماعةَ.

وهي السوادُ الأعظمُ؛ لأنَّها الجماعةُ.

قالَ ابنُ حبّانَ في «صحيحه» (٨ / ٤٤):

«الأمرُ بالجماعةِ بلفظِ العُمومِ والمرادُ منه الخاصُّ؛ لأنَّ الجماعةَ هي إجماعُ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فمن لَزِمَ ما كانوا عليه وشذَّ عمَّن بعدَهم لم يَكن بشاقٍّ للجماعةِ، ولا مفارق لها، ومن شذَّ عنهم وتبعَ من بعدَهم كانَ شاقّاً للجماعةِ، والجماعةُ بعدَ الصحابةِ هم أقوامٌ اجتمعَ فيهم الدينُ والعقلُ والعلمُ ولزموا تركَ الهوى فيما هم وإن قلَّت أعدادهم، لا أوباش الناسِ ورعاعهم وإن كَثروا».

وقالَ إسحاقُ بنُ راهويه:

«لو سألتَ الجُهّالَ عن السوادِ الأعظمِ لقالوا: جماعةُ النَّاسِ، لا يَعلمونَ أنَّ الجماعةَ عالمٌ متمسكٌ بأثرِ النبيِّ ﷺ وطريقه، فمن كانَ معه وتبعه فهو الجماعةُ»[1].

قالَ الإمامُ الشّاطبيُّ في كتابِهِ القيّم «الاعتصام» (٢ / ٢٦٧) مؤكداً هذا الفهمَ السُّنِّيّ الصَّحيح:

«فانظر حكايتَه تتبيَّنُ غلطَ من ظنَّ أنَّ الجماعةَ هي جماعةُ النَّاسِ، وإن لم يَكن فيهم عالمٌ، وهو فهمُ العوامِّ لا فهمَ العلماءِ، فَلْيُثبِّت الموفَّقُ في هذه المزلَّةِ قدمَه لئلَّا يَضلَّ عن سواءِ السَّبيلِ، ولا توفيقَ إلّا باللهِ» أ. هـ

قال اللالكائي في «شرح أُصول اعتقاد أَهل السنّةِ والجماعةِ» (١ / ٢٥) في وصفِ الطائفةِ المنصورةِ والفرقةِ الناجيةِ:

---

(١) أخرجه أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٩ / ٢٣٩).

«واغتاظَ بهم الجاحدونَ؛ فإنّهم السوادُ الأعظمُ والجمهورُ الأضخمُ؛ فيهم العلمُ والحكمُ، والعقلُ والحلم، والخلافة والسيادة، والملك والسياسة، وهم أَصحاب الجمعات والمشاهد، والجماعات والمساجد، والمناسك والأعياد، والحج والجهاد، وباذلو المعروف للصادر والواردِ، وحماةُ الثغور والقناطر الّذينَ جاهدوا في اللهِ حقّ جهادِه».

قالَ شيخُ الإسلامِ في «مجموعِ الفتاوى» (٣ / ٣٤٥):

«ولهذا وصفَ الفرقةَ الناجية بأنّها أهلُ السُّنَّة والجماعة، **وهم الجمهورُ الأكبرُ والسوادُ الأعظمُ**».

قلت: تدبَّر أيّها الأخُ هذه الكلماتِ الغالياتِ واحفظها؛ فإنّها تُزيلُ عنكَ إشكالاتٍ أوجبَها حملُ أحاديثِ رسولِ اللهِ ﷺ المتقدّمة في التفرُّق على وهم العامّةِ، وتوهم إنصافِ الفقهاءِ، وتدحضُ شبهاتٍ أثارَها دعاةُ الفرق الضالّةِ الذينَ ردّوا هذه الأحاديثَ بدعوى أنّها تُخالفُ الواقعَ حيثُ تَحكمُ على جَماهيرِ الأمّةِ الإسلاميّةِ بدخولِ النّارِ ظنّاً منهم أنّ جماهيرَ الأُمّةِ الإسلاميّةِ يَدينونَ ببدعهم وضلالاتِهم، وما فَطنوا أنَّ جماهيرَ الأُمّةِ الإسلاميّةِ تجذبُهم الفطرةُ السَّليمةُ إلى العقيدةِ الصحيحةِ - إن شاءَ اللهُ - ولذلكَ تمنَّى رؤوسُ مذهبِ الخلفِ أن يَموتوا على دينِ العجائزِ.

ولا شكَّ أنَّ هذه الطائفةَ المنصورةَ هي على ما كانَ عليه النَّبيُّ وأصحابه؛ لأنّها على الحقِّ، والحقُّ هو ما كانَ عليه النَّبيُّ وأصحابُه؛ فمن بَقي على ما كانت عليه الجماعةُ قبلَ التَّفرُّق، وكانَ وحدَه، فإنَّه حينئذٍ هو الجماعة.

وبهذا تتَّضح معالمُ منهجِ الفرقةِ الناجية والطَّائفةِ المنصورةِ:

الكتابُ والسنّةُ بفهمِ سلفِ الأمّةِ؛ محمد والَّذين معه ومن اتَّبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

ودعوةٌ إلى توحيدِ الأمّةِ على هذا الفهمِ؛ لأنّه اعتصامٌ بحبلِ اللهِ.

وهو المؤهِّلُ لإعادةِ مجدِ هذه الأمةِ المفقودةِ، وتحقيقِ أملِها المنشود، لأنَّه الدينُ المؤسَّسُ على الفطرةِ، واللهُ بالغٌ أمره:

أمّا حالُ الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ؛ فقد وردت أربعةُ أوصافٍ تنعتُه:

١- «لا تَزالُ طائفةٌ»، وهذا يَعني الاستمرار.

٢- «ظاهرة على الحقِّ»، وهذا يَعني الانتصارَ.

٣- «لا يَضرُّهم من خذَلَهم ولا من خالفَهم» وهذا يَعني إغاظةَ أهلِ البدعِ والكفّارِ.

٤- «كلُّها في النارِ إلّا واحدةً»، ويَعني النجاةَ من النارِ.

أمّا الاستمرارُ والانتصارُ؛ فلقد اتفقت أحاديثُ الطائفةِ المنصورةِ على أنّها مستمرَّةٌ بثباتٍ على الإسلامِ حتّى يأتِيَ أمرُ اللهِ وهم كذلكَ.

وهذه صفةٌ عَظيمةٌ استظهرها أهلُ العلمِ لأنَّ فيها معجزةً بيّنةً لرسولِ اللهِ ﷺ - حيثُ وَقعَ ما أخبرَ به -.

قالَ المُناوي في «فيضِ القديرِ» (٦ / ٣٩٥):

«وفيه معجزةٌ بيّنةٌ؛ فإنَّ أهلَ السنّةِ لم يَزالوا ظاهرينَ في كلِّ عصرٍ إلى الآن، فمن حينِ ظهرت البدعُ على اختلافِ صُنوفِها من الخوارجِ والمعتزلةِ والرّافضةِ وغيرِهم لم يَقمْ لأحدٍ منهم دولةٌ، ولم تستمرَّ لهم شوكةٌ بل كلّما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأها اللهُ بنورِ الكتابِ والسنّةِ، فللّه الحمد والمنّةُ».

وأمّا إغاظةُ أهلِ البدعِ والكفّارِ، فهذه الطائفةُ الطيبةُ الّتي غرَسَها اللهُ، فنما عُودُها واشتدَّ فاستغلظَ فاستوى على سوقِه لا تَرى فيه عوجاً، بل قويّاً سويّاً إذا رآه أهلُ الخبرةِ في الزرعِ العالمينَ بالنّامي منه والذابلِ، المُثمر، منه والبائر، سرُّوا وأحبّوه، وأمّا إذا وَقعَ بصرُ أهلِ الزيفِ والزُّورِ والكذبِ امتلأت قلوبُهم غيظاً وكمداً . . . قل موتوا بغيظكم.

هذه صفةُ جيلِ القدوةِ الأوّل:

﴿ومثلُهم في الإنجيلِ كزرعٍ أخرجَ شطأه فآزره فاستغلظَ فاستوى على سوقِه يُعجبُ الزرّاعَ ليغيظَ بهم الكفّارَ﴾. [الفتح: ٢٩]

ولا شكَّ أنّها أيضاً صفةٌ للطائفةِ المنصورةِ أهلِ الحديثِ الّذينَ درجوا عل أثرِ جيلِ القدوةِ الأول محمد ﷺ وصحبه، ونَهلوا من معينِه الصافي كتاباً وسنةً.

وتعمّدُ إغاظةِ الكفارِ يُوحي بأنَّ هذه الطائفةَ هي غرسٌ غرسَه اللهُ وتعهدَه رسولُ اللهِ ﷺ بالتربيةِ، فهي من دلائلِ قدرةِ اللهِ؛ لأنّها أداةٌ لإغاظةِ أعداءِ اللهِ الّذينَ يَعملونَ على إطفاءِ نورِ اللهِ، وإخمادِ جذوتهِ في نفوسِ المسلمينَ، ولكنَّ اللهَ متمُّ نورِهِ ولو كره المشركونَ، ومظهرُ دينِه، ولو كره الكافرونَ.

ولذلكَ ترى أهلَ البدعِ يُعادونَ أهلَ الحديثِ في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

قالَ أبو عثمانَ عبدُالرَّحمنِ بنُ إسماعيلَ الصابونيُّ رحمه اللهُ في كتابِه «عقيدة السلف أصحاب الحديثِ» (ص ١٠١ - ١٠٢):

«وعلاماتُ أهلِ البدعِ على أهلِها ظاهرةٌ، وأظهرُ آياتِهم وعلاماتِهم شدّةُ معاداتِهم لحملةِ أخبارِ النّبيِّ ﷺ، واحتقارُهم لهم، واستخفافهم بهم، وتسميتُهم إيّاهم حشويّةً، وجهلةً، وظاهريّةً، ومشبهةً اعتقاداً منهم في أخبارِ رسولِ اللهِ ﷺ إنّها بمعزلٍ عن العلمِ، وأنَّ العلمَ ما يُلقيه الشيطانُ إليهم من نتائجِ عُقولِهم الفاسدةِ، ووساوسِ صدورِهم المظلمةِ، وهواجسِ قُلوبِهم الخاليةِ من الخيرِ، وكلماتِهم وحججهم العاطلةِ بل شبههم الداحضةِ الباطلةِ.

﴿**أُولئكَ الّذينَ لَعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارَهم**﴾ [محمد: ٢٣].

﴿**مَنْ يُهنِ الله فما له من مُكرمٍ إنَّ اللهَ يَفعلُ ما يشاءُ**﴾ [الحج: ١٨]».

قالَ أحمدُ بنُ سنانٍ القطّان المتوفى سنةَ ٢٥٨هـ رحمه اللهُ:

«ليسَ في الدنيا مبتدعٌ إلّا وهو يُبغضُ أهلَ الحديثِ، فإذا ابتدعَ الرَّجلُ نُزِعَ حلاوةُ الحديثِ من قلبِه»(١).

وقالَ أبو نصر بنُ سلّام الفقيه المتوفى سنةَ ٣٠٥هـ رحمه اللهُ:

«ليسَ شيءٌ أثقلَ على أهلِ الإلحادِ ولا أبغضَ إليهم من سماعِ الحديثِ وروايته

---

(١) أخرجه الخطيبُ البغداديُّ في «شرف أصحابِ الحديثِ» (ص ٧٣)، والحاكمُ في «معرفةِ عُلومِ الحديثِ» (ص ٤)، ومن طريقِه الصابونيّ في «عقيدةِ السلفِ أصحابِ الحديثِ» (ص ١٠٢).
قلتُ: وإسناده صحيحٌ.

بإسنادِه»(١).

عن أبي إسماعيلَ محمد بنِ إسماعيلَ الترمذيّ قالَ:

كنتُ أنا وأحمدُ بن الحسن الترمذيّ عندَ أبي عبدِاللهِ أحمد بنِ حنبلٍ فقالَ له: يا أبا عبدِاللهِ ذَكروا لابنِ أبي قَتيلةَ بمكةَ أصحابَ الحديثِ، فقالَ: قومُ سوءٍ.

فقامَ أبو عبدِاللهِ وهو يَنفضُ ثوبَه، فقالَ: زنديق، زنديق، زنديق، ودخلَ بيتَه(٢).

قالَ الحاكمُ في «معرفةِ عُلومِ الحديثِ» (ص ٤):

«وعلى هذا عهدنا في أسفارِنا وأوطاننا كلَّ من ينتسبُ إلى نوعٍ من الإلحادِ والبدعِ، لا ينظرُ إلى الطائفةِ المنصورةِ إلّا بعينِ الحقارةِ ويسميها الحشويّة».

قالَ أبو حاتم الرَّازيُّ:

«علامةُ أهلِ البدعِ الوقيعةُ في أهلِ الأثرِ، وعلامةُ الزنادقةِ تسميتُهم أهلَ الأثرِ حشويّةً، يُريدونَ بذلكَ إبطالَ الأثرِ، وعلامةُ القَدَريّةِ تسميتُهم أهلَ السنّةِ مُشبهةً، وعلامةُ الرَّافضةِ تسميتُهم أهلَ الأثرِ نابتةً وناصبةً»(٣).

قالَ الصابونيُّ في «عقيدةِ السلفِ» (ص ١٠٥ - ١٠٧):

---

(١) أخرجه الخطيبُ البغداديُّ في «شرف أصحابِ الحديثِ» (ص ٧٣ - ٧٤) والحاكمُ، في «معرفةِ عُلومِ الحديثِ» (ص ٤)، والصابونيُّ في «عقيدةِ السلفِ» (ص ١٠٤).
قلت: وإسناده صحيحٌ.

(٢) أخرجه الخطيبُ البغداديُّ في «شرفِ اصحابِ الحديثِ» (ص ٧٤)، والحاكمُ في «معرفةِ علومِ الحديث» (ص ٤)، ومن طريقِه الصابونيّ في «عقيدةِ السلفِ أصحابِ الحديثِ» (ص ١٠٣)، وابنُ الجوزي في «مناقب أحمد» (ص ١٨٠)، وأبو يَعلى في «طبقاتِ الحنابلةِ» (١ / ٣٨).
قلتُ: وإسناده صحيحٌ.

(٣) ذكره ابنُ أبي حاتم في رسالتِه: «أصل السنّة واعتقاد الدينِ» المطبوعة في «مجلةِ الجامعةِ السلفيّة» عدد شهر رمضان سنةَ ١٤٠٣هـ.
وأخرجه الصابونيُّ في «عقيدةِ السلفِ» (ص ١٠٥)، واللالكائي في «شرحِ أُصولِ اعتقادِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ» (٢ / ١٧٩).
قلتُ: وهو صحيحٌ.

«وكلُّ ذلكَ عصبيّةٌ ولا يَلحقُ أهلَ السنّةِ إلّا اسمٌ واحدٌ وهو أهلُ الحديثِ».

ثمّ قالَ:

«رأيتُ أهلَ البدعِ في هذه الأسماءِ الّتي لَقبّوا بها أهلَ السنّةِ - ولا يَلحقُهم شيءٌ منها فضلاً من اللهِ ومنّةً - سَلكوا معهم مسلكَ المشركينَ - لعنهم اللهُ - مع رسولِ اللهِ ﷺ فإنّهم اقتسموا القولَ فيه؛ فسمّاه بعضُهم ساحراً، وبعضُهم كاهناً، وبعضُهم شاعراً، وبعضُهم مجنوناً، وبعضُهم مُفترياً مختلقاً كذّاباً، وكانَ النّبيُّ ﷺ من تلكَ المعائبِ بعيداً بَريئاً، ولم يَكن إلّا رسولاً مصطفى نبيّاً.

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿انظر كيفَ ضَربوا لكَ الأمثالَ فضلّوا فَلا يَستطيعونَ سَبيلاً﴾ [الفرقان: ٩].

وكذلكَ المبتدعةُ - خذلهم الله - اقتسموا القولَ في حملةِ أخبارِه، ونقلَة آثارِه، ورواةِ أحاديثِه، المُقتدينَ به، المهتدينَ بسنته المعروفينَ بأصحابِ الحديثِ؛ فسمّاهم بعضُهم حشويّةً، وبعضُهم مشبهةً، وبعضُهم نابتةً، وبعضُهم ناصبةً، وبعضهم جبريّةً.

وأصحابُ الحديثِ عصامةٌ من هذه المعايبِ بريئةٌ زكيّةٌ نَقيّةٌ، وليسوا إلّا أهلَ السنّةِ المُضية، والسيرةِ المَرْضيّة، والسُّبلِ السويّةِ، والحججِ البالغةِ القويّةِ، قد وفقهم اللهُ جلَ جلاله لاتّباعِ كتابِه ووحيِه وخطابِه، واتّباعِ أقربِ أوليائه، والاقتداءِ برسولِه ﷺ في أخبارِه الّتي أَمرَ فيها أُمتَه بالمعروفِ من القَولِ والعملِ، وزجرَهم فيها عن المنكرِ منها، وأعانَهم على التمسكِ بسيرتِه، والاهتداءِ بمُلازمةِ سنته».

قلتُ: فكما تداعت الأممُ على أُمةِ الإسلامِ فكذلكَ تكالبت الفرقُ المبتدعةُ على السَّلفِ أهلِ الحديثِ؛ لأنّهم شامةٌ بينَ الفرقِ، كما أنَّ أُمةَ الإسلامِ شامةٌ بينَ الأممِ، يُريدونَ بذلكَ جَرْحَ شهودِنا على الكتابِ والسنّةِ كما صنعَ أسلافُهم الرافضة والخَوارج والقدريّةُ من قبلُ مع أسلافِنا صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

عن أحمدَ بنِ سُليمانَ التستريّ قالَ: سمعتُ أبا زُرعةَ يَقولُ:

«إذا رأيتَ الرَّجلَ ينتقصُ أحداً من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فاعلم أنّه

زنديقٌ؛ وذلكَ أنَّ الرَّسولَ عندنا حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدّى إلينا هذا القرآنَ والسننَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّما يُريدون أن يَجرحوا شهودنا، ليبطلوا الكتابَ والسنّةَ، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقةٌ»[1].

وقالَ شيخُ الإسلامِ وشامةُ أَهلِ الشامِ ابنُ تيميّةَ رحمه اللهُ في «مجموعِ الفتاوى» (٤ / ٩٦):

«ليتبيَّنَ لكَ أنَّ الَّذينَ يَعيبونَ أَهلَ الحديثِ ويعدلِونَ عن مذهبِهم جهلةٌ زنادقةٌ منافقونَ بلا ريبَ؛ ولهذا لمّا بَلغَ الإمامَ أحمدَ عن ابنِ أبي قَتيلةَ أَنّه ذُكرَ عندَه أهلُ الحديثِ بمكةَ فقالَ: قومُ سوءٍ، فقامَ الإمامُ أحمدُ وهو ينفضُ ثوبَه ويقولُ: زنديق، زنديق، زنديق، ودخلَ بيتَه؛ **فإنَّه عَرَفَ مغزاه**».

قلتُ: نعم؛ هَكذا كانَ ربانيو هذه الأمةِ لدعاةِ الضلالةِ وفرقِ الغوايةِ وأفراخِهم بالمرصادِ تحذيراً وتنبيهاً؛ لئلا يقعَ الطيّبونَ في شراكِهم وحيلِهم وتدليسِهم.

٢- الغرباء:

والكلامُ في «الغرباءِ» من وُجوه:

□ **أولاً: الأحاديثُ النبويّةُ الواردةُ في غربةِ الإسلامِ:**

عن أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ:

«إنَّ الإسلامَ بدأَ غريباً، وسيعودُ غَريباً كما بدأ، فَطوبى للغرباءِ»[2].

وفي البابِ عن جماعةٍ من الصحابةِ رضي الله عنهم:

أ- حديثُ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«بدأَ الإسلامُ غريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأَ، فطوبى للغرباءِ».

قالَ: قيلَ: من الغرباءُ؟

---

(١) أخرجه الخطيبُ البغداديُّ في «الكفاية» (ص ٤٨) وغيره.
قلتُ: وهو صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢ / ١٧٥ - ١٧٦ - نووي).

قالَ: «النُزّاعُ من القبائلِ»[١].

وفي روايةٍ: «الَّذينَ يَصلحونَ إذا فسدَ النّاسُ»[٢].

ب- حديثُ عبدِاللهِ بنِ عمر بنِ الخطّابِ رضي اللهُ عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«إنَّ الإسلامَ بدأَ غَريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأَ، وهو يأرزُ بينَ المسجدين كما تأرِزُ الحيّةُ في جُحرِها»[٣].

ت- حديثُ عبدِاللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ رضي اللهُ عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في ذاتِ يومٍ ونحنُ عنده:

«طوبى للغرباءِ».

فقيلَ: من الغرباءُ؟

قالَ: «أُناسٌ صالحونَ في أُناسِ سوءٍ كثيرٍ مَن يَعصيهم أكثرُ ممّن يُطيعُهم»[٤].

وفي رواية: «الفرّارونَ بدينهم يَبعثُهم اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ مع عيسى بنِ مريمَ عليه السلامُ»[٥].

ث- حديثُ ابنِ عبّاسٍ[٦] وأنسِ بنِ مالكٍ[٧] رضي اللهُ عنهما مثلُ حديثِ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه.

ج- حديثُ جابر بن عبدِ اللهِ[٨] وسهل بنُ سعدٍ[٩] رضي الله عنهم

(١) **ضعيف**؛ كما بينته في كتابي «طوبى للغرباء» رقم (١).
(٢) **صحيح**؛ كما في المصدر السابق رقم (١).
(٣) أخرجه مسلم (٢ / ٧٦ - نووي).
(٤) **صحيح بطرقه**؛ كما بينته في كتابي «طوبى للغرباء» (٣).
(٥) **ضعيف**؛ كما في المصدر السابق (٣).
(٦) **ضعيف**؛ المصدر السابق نفسه (٤).
(٧) صحيح بطرقه، المصدر السابق (٩).
(٨) **ضعيف**؛ المصدر السابق (٧).
(٩) **ضعيف**؛ المصدر السابق (٨).

مثلُ حديثِ ابنِ مسعودٍ في روايتِهِ الثانية.

حـ - حديثُ عبد الرَّحمنِ بنُ سَنّة رضي اللهُ عنه أنَّه سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ:

«بدأَ الإسلامُ غَريباً، ثمَّ يَعودُ غَريباً كما بدأَ، فطوبى للغرباءِ».

قيلَ: يا رسولَ اللهِ ومن الغرباءُ؟

قالَ: «الَّذينَ يصلحونَ إذا فسدَ النَّاسُ، والَّذي نفسي بيدِه لينحازنَّ الإيمانُ إلى المدينةِ كما يَحوزُ السيل، والَّذي نفسي بيدِه ليأرزَنَّ الإسلام إلى ما بينَ المسجدينِ كما تأرزُ الحيَّةُ إلى جحرِها»[1].

خـ- حديثُ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ رضي اللهُ عنه نحو حديثِ عبدِالرَّحمنِ بنِ سَنَّة رضي اللهُ عنه[2].

د- حديثُ عمرو بنِ عوفٍ المزَنيّ - رضي اللهُ عنه - أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ:

«إنَّ الدينَ ليأرزُ إلى الحجازِ كما تأرزُ الحيّةُ إلى جُحرِها، وليعقلنَّ الدين من الحجازِ معقلَ الأرويةِ من رأسِ الجبلِ، إنَّ الدينَ بدأَ غَريباً، ويرجعُ غَريباً، فطوبى للغرباءِ الَّذينَ يُصلحونَ ما أفسدَ النّاسَ من بعدي في سنتي»[3].

وبالجملةِ؛ **فحديثُ الغُرباءِ متواترٌ**؛ كما نصَّ على ذلكَ السيوطيُّ في «تدريبِ الرَّاوي» (٢ / ١٨٠)، والسخاويُّ في «المقاصدِ الحسنةِ» (ص ١١٤)، والغُماريُّ (!) في تعليقِه على «المقاصدِ الحسنةِ» (ص ١١٤)، والكتّانيُّ في «نظمِ المُتناثرِ» (ص ٣٤ - ٣٥).

□ ثانياً: تفسيرُ الغُرباءِ:

جاءت زياداتٌ مفسرةٌ للغرباءِ تكلَّمت عليها مفردةً، وهأنا أضمّها إلى بعضِها بعضاً لنصلَ إلى قولٍ فصلٍ فيها:

---

(١) **ضعيف**؛ المصدر السابق (١٠)، وللحديث طريق أخرى بلفظ آخر صحيح.
(٢) **صحيح**؛ المصدر السابق (١١).
(٣) **ضعيف جدّاً**؛ المصدر السابق (١٣).

١- «النُّزّاعُ من القبائلِ»:

لم أرها إلّا في حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ وهي ضَعيفةٌ؛ لأنَّ مدارها على أبي إسحاقَ السَّبيعيِّ، وهو مدلسٌ مُختلطٌ.

٢- «الّذينَ يَصلحونَ إذا فسدَ الناسُ»:

جاءت في حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ بإسنادٍ صحيحٍ، وفي حديثِ أبي هُريرة بإسنادٍ فيه بكرُ بن سليمٍ الصّوافُ وهو ضَعيفٌ لكن يُعتبرُ به، ومن طريقِه أيضاً في حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ الساعديّ، وفي حديثِ جابرِ بن عِبدِالله بإسنادٍ فيه عبدُالله بنُ صالح كاتبُ اللّيثِ، وهو ضعيفٌ يستشهدُ به، وفي حديثِ عبدِالرّحمنِ بنِ سنة بإسنادٍ فيه إسحاقُ بنُ عبدِالله ابن أبي فَروةَ وهو متروكٌ لا يُفرحُ به، وفي حديثِ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ بإسنادٍ صحيحٍ، وفي مرسلِ يحيى بن سعيدٍ بإسنادٍ فيه ضعفٌ.

وبهذا يتبيّنُ أنَّ هذه الجُملةَ صحيحةٌ مستفيضةٌ.

٣- «أُناسٌ صالحونَ في أُناسٍ سوءٍ كثيرٍ من يعصيهم أكثرُ ممن يُطيعهم».

جاءت في حديثِ عبدِالله بنِ عمروِ بنِ العاصِ، وهي صحيحةٌ.

وقد أبعدَ السبكيُّ النّجعةَ فذكرَها في البابِ الّذي جَمعَ فيه الأحاديثَ الّتي لا أصلَ لها في «كتابِ إحياءِ عُلومِ الدينِ» ضمنَ ترجمة أبي حامد الغزالي في «طبقاتِ الشافعيّةِ» (٤ / ١٤٥).

وهذا وهمٌ قَبيحٌ وبخاصةٍ أنَّ هذه الروايةَ في «المسندِ» للإمامِ أحمدَ.

٤ - «هم المتمسكونَ بما أنتم عليه».

ذكرَها الغزاليُّ في «إحياءِ علومِ الدينِ» (١ / ٣٨)، وقالَ الحافظُ العراقيُّ: «يَقولُه في وصفِ الغُرباءِ لم أرَ له أصلاً».

وحشرها السبكيُّ في الأحاديثِ الّتي لا أصلَ لها الواردةِ في «إحياءِ عُلومِ الدينِ» ضمنَ ترجمةِ الغزاليّ في «طبقاتِ الشافعيّةِ» (٤ / ١٤٥).

قلتُ: والأمرُ كما قالا.

٥ - «الفرّارونَ بدينِهم يَبعثُهم اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ مع عيسى بن مريمَ عليه السلامُ».

جاءت في حديثِ عبدِالله بنِ عمرو بإسنادٍ ضَعيفٍ.

٦- «الَّذينَ يُصلحونَ ما أفسدَ الناسُ من بعدي من سنتي».

جاءت في حديثِ كثير بنِ عبدِالله عن أبيه عن جدّهِ وهو واهٍ بمرّة.

٧- «الَّذينَ يَزيدونَ إذا نَقصَ الناسُ».

جاءت في حديثِ المطّلبِ بنِ حنطب مرسلاً.

٨- قالوا يا رسولَ اللهِ كيفَ يَكونُ غريباً؟

قالَ: «كما يُقالُ للرجلِ في حيّ كَذا وكذا: إنَّه لغريبٌ».

جاءت في حديثِ الحسنِ البصريّ مرسلاً.

٩- «والَّذينَ يمسكونَ بكتابِ اللهِ حينَ يُتركُ، ويعملونَ بالسنّةِ حينَ تُطفأُ».

جاءت في حديثِ بكرِ بنِ عمرو المعافري معضلاً.

١٠- «لا يُمارونَ في دينِ اللهِ، ولا يَكفّرونَ أهلَ القبلةِ بذنبٍ».

جاءت في حديثِ أبي الدرداءِ وأنسٍ وواثلةَ مُجتمعينَ بسندٍ واهٍ جداً.

وبالجملةِ؛ فلا يصحُّ في تفسيرِ الغُرباءِ إلّا تفسيرانِ مرفوعانِ:

١ - «الَّذين يصلحونَ إذا فسدَ الناسُ».

٢ - «أُناسٌ صالحونَ في أُناسِ سوءٍ كَثير، من يَعصيهم أكثرُ ممن يُطيعُهم».

□ ثالثاً: هل بينَ الغرباءِ والفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ النصورةِ تَغايرٌ؟

لا فرقَ بينَ هذه المسميّاتِ لأنّها تُفضي إلى حقيقةٍ واحدةٍ، وهذا ما صرَّحَ به أهلُ العلمِ من السلفِ.

قالَ الآجُرّي رحمه اللهُ في «صفةِ الغرباءِ من المؤمنين» (ص ٢٧):

«وقولُه ﷺ: «سيعودُ غَريباً» معناه - واللهُ أعلمُ - أنَّ الأهواءَ المُضلّةَ تكثرُ

فيضلّ بها كثيرٌ من الناسِ، ويَبقى أهلُ الحقّ الَّذينَ هم على شريعةِ الإسلامِ غُرباءَ في الناسِ، ألم تسمع قولَ النبيّ ﷺ: «تفترقُ أُمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً كلُّها في النارِ إلّا واحدةٌ».

فقيلَ: من هي الناجيةُ؟

قالَ: «ما أنا عليه اليومَ وأصحابي» أ.هـ.

قلت: فأنت ترى أنَّ الآجري - رحمه الله - فسَّر الغرباء بالفرقة الناجية.

وقالَ الحافظُ ابنُ رجبٍ الحنبليّ - رحمه اللهُ - في «كشفِ الكربةِ في وصفِ حالِ أهلِ الغربةِ» (ص ٢٢ - ٢٧):

«وأمّا فتنةُ الشبهاتِ والأهواءِ المضلّةِ فبسببِها تفرّق أهلُ القبلةِ وصاروا شيعاً وكفّرَ بعضُهم بعضاً، وأصبحوا أعداءً وفرقاً وأحزاباً، بعدَ أن كانوا إخواناً قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ، فلم يَنجُ من هذه الفرقِ إلّا الفرقةُ الواحدةُ الناجيةُ، وهم المذكورونَ في قولِه ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الحقّ لا يَضرُهم من خَذَلهم ولا من خالفَهم حتّى يأتيَ أمرُ اللهُ وهم على ذلكَ».

وهم في آخرِ الزمانِ الغرباءُ المذكورونَ في هذه الأحاديثِ: الَّذينَ يصلحونَ إذا فسدَ الناسَ، وهم الَّذينَ يُصلحونَ ما أفسدَ الناسُ من السنّةِ، وهم الَّذينَ يفرُّونَ بدينِهم من الفتنِ، وهم النُزّاعُ من القبائلِ؛ لأنّهم قلّوا، فَلا يُوجدُ في بعضِ القبائلِ منهم أحدٌ كما كانَ الدّاخلونَ إلى الإسلامِ في أوّلِ الأمرِ كذلكَ، وبهذا فسّرَ الأئمةُ هذا الحديثَ.

قالَ الأوزاعيُّ - في قولِه ﷺ: «بدأَ الإسلامُ غَريباً وسيعودُ غَريباً كما بدأَ» -: «أمّا إنّه ما يذهبُ الإسلامُ؛ ولكن يَذهبُ أهلُ السنّةِ حتّى ما يَبقى في البلدِ منهم إلّا رجلٌ واحدٌ».

ولهذا المعنى يُوجدُ في كلامِ السَّلفِ كثيراً مدحُ السنّةِ ووصفُها بالغربةِ، ووصفِ أهلِها بالقلّةِ، فكانَ الحسنُ رحمه اللهُ يَقولُ لأصحابِه: «يا أهلَ السنّةِ ترفّقوا رحمكم اللهُ فإنّكم من أقلِّ النّاسِ».

وقالَ يُونسُ بنُ عُبيدٍ: «ليسَ شيءٌ أغربَ من السنّةِ، وأغربُ منها من

يَعرفُها».

وعن سُفيانَ الثوريّ قالَ: «استوصوا بأهلِ السنّةِ فإنّهم غُرباءُ».

ومرادُ هؤلاءِ الأئمةِ بالسنّةِ: طريقةُ النّبيّ ﷺ الّتي كانَ عليها هو وأصحابُه، السالمةُ من الشبهاتِ والشهواتِ.

ولهذا كانَ الفُضيلُ بنُ عياضٍ يَقولُ: «أهلُ السنّةِ من عرفَ ما يَدخلُ في بطنِه من حلالٍ».

وذلكَ لأنَّ أكلَ الحلالِ من أعظمِ خصائلِ السنّةِ الّتي كانَ عليها النبيُّ ﷺ وأصحابُه رضي اللهُ عنهم.

ثمّ صارَ في عُرفِ كثيرٍ من العُلماءِ المتأخرينَ من أهلِ الحديثِ وغيرِهم السنّةُ عبارةً عمّا سلمَ من الشبهاتِ في الاعتقاداتِ خاصّةً في مسائلِ الإيمانِ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ، وكذلكَ في مسائلِ القدرِ وفضائلِ الصحابةِ، وصنّفوا في هذا العلمِ باسمِ السنّةِ؛ لأنَّ خطرَه عظيمٌ، والمخالفَ فيه على شفا هلكةٍ.

وأمّا السنّةُ الكاملةُ فهي الطريقُ السالمةُ من الشبهاتِ والشهواتِ كما قالَ الحسنُ ويُونسُ بنُ عُبيدٍ وسُفيانُ والفُضيلُ وغيرُهم، ولهذا وصفَ أهلَها بالغربةِ في آخرِ الزمانِ لقلّتهم وغُربتِهم فيه» أ.هـ

قلت: تأمل كيفَ عَدَّ الحافظ ابن رجب الغُرباءَ هم الفرقةُ الناجيةُ والطائفةُ المنصورةُ لا فرق[1].

٣ - أهلُ الحديثِ.

والكلامُ في «أهلِ الحديثِ» من وُجوه:

□ **أوّلاً: اتفاقُ أهلِ العلمِ والإيمانِ على تفسيرِ الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ بأهلِ الحديث.**

اِعلم أيها العبدُ الباحثُ عن الحقيقةِ أنَّ كلمةَ أهلِ العلمِ اتفقت على أنَّ أهلَ

---

(١) وكذلكَ عدَّ الفرقةَ الناجيةَ والطائفةَ المنصورةَ شيئاً واحداً لا فرقَ؛ فقد فسَّرَ الفرقةَ الناجية بحديثِ الطائفةِ المنصورة، وفي هذا ردٌّ على من فرّقَ بينهما، واللهُ الموعدُ.

الحديثِ هم الطائفةُ المنصورةُ، والفرقةُ الناجيةُ.

وهأنا أضعُ بينَ يديكَ هذا الحشدَ الهائلَ منهم، عندئذٍ لا تجدُ مفرّاً إلّا أن تسلكَ سبيلَهم، وتدرجَ على أثرِهم، وتتبعَ فهمهم، فهم زوامل دينِ ربِّ العالمينَ، الّذينَ نَطقَ بهم الكتابُ وبه نَطقوا، وبهم قامت السنّةُ وبها قاموا، ومن يتبع غيرَ سبيلهم فقد سفه نفسَه:

١- عبدالله بنُ المُباركِ المتوفّى سنةَ ١٨١هـ رحمه اللّه.

٢- عليُّ بنُ المدينيّ المتوفّى سنةَ ٢٣٤هـ رحمه الله.

٣- أحمدُ بنُ حنبلٍ المتوفّى سنةَ ٢٤١هـ رحمه اللهُ.

٤- محمد بنُ إسماعيلَ البخاريّ المتوفّى سنةَ ٢٥٦هـ رحمه اللهُ.

٥- أحمدُ بنُ سنانٍ المتوفّى سنةَ ٢٥٨هـ رحمه اللهُ.

٦- عبدُ اللهُ بنُ مسلم بنُ قتيبةَ المتوفّى سنةَ ٢٦٧هـ رحمه اللهُ.

٧- محمد بنُ عيسى الترمذيُّ المتوفّى سنةَ ٢٧٦هـ رحمه اللهُ.

٨- محمد بنُ حبّانَ المتوفّى سنةَ ٣٥٤هـ رحمه اللهُ.

٩- محمد بنُ الحسينِ الأجرّي المتوفّى سنةَ ٣٦٠هـ رحمه اللهُ.

١٠- محمد بنُ عبدِاللهِ الحاكم النيسابوريّ المتوفّى سنةَ ٤٠٥هـ رحمه اللهُ.

١١- أحمدُ بنُ عليّ ين ثابتٍ الخَطيب النيسابوريّ المتوفّى سنةَ ٤٦٣هـ رحمه اللهُ.

١٢- الحسينُ بنُ مسعودٍ البغويّ المتوفّى سنةَ ٥١٦هـ رحمه اللّه.

١٣- عبدُ الرحمن بن الجوزيّ المتوفّى سنةَ ٥٩٧هـ رحمه اللّه.

١٤- أبو زكريا يحيى بن يحيى بن شرف النوويّ المتوفّى سنةَ ٦٧٦هـ رحمه اللهُ.

١٥- أحمدُ بنُ عبدِالحليمِ بن تيميّةَ شيخُ الإسلامِ المتوفّى سنةَ ٧٢٨هـ رحمه اللهُ.

١٦- إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الشاطبيّ المتوفّى سنةَ ٧٩٠هـ رحمه اللهُ.

١٧- أحمدُ بن عليّ بن حجرٍ العسقلانيّ المتوفّى سنةَ ٨٥٢هـ رحمه اللهُ[١].

كلُّ هؤلاءِ الأئمةِ - وغيرهم كثيرٌ - صرَّحوا أنَّ الفرقةَ الناجيةَ والطائفةَ المنصورةَ هم أهلُ الحديثِ، ولن يَضلَّ بإذنِ اللهِ من اهتدى بأقوالِهم، واقتفى آثارَهم كيفَ وهم القومُ لا يَشقى جليسُهم.

ولَقد نقلَ النوويُّ رحمه اللهُ في «تهذيبِ الأسماءِ واللغاتِ» (١ / ١٧) اتفاقَ أهلِ العلمِ على ذلكَ فقالَ:

«ومع هذا فلهم في أنفسِهم فضائلُ ظاهرةٌ، وفي حفظِ العلمِ آياتٌ باهرةٌ؛ ففي الصحيحينِ أنَّ النبيَّ عليه السلامُ قالَ: «لا تَزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرينَ على الحقِّ لا يَضرُّهم من خَذلَهم».

وجملةُ العُلماءِ أو جُمهورهم على أنّهم حملةُ العلمِ.» أ.هـ

□ ثانياً: من هم السَّلَفُ أهلُ الحديثِ؟[٢]

هم من درجَ على نهجِ الصحابةِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ في التمسكِ بالكتابِ والسنّةِ، وتقديمِها على كلِ قولٍ سواءٌ أكانَ في العقيدةِ، أو العبادةِ، أو المعاملةِ، أو الأخلاقِ، أو السياسةِ، أو أيّ شأنٍ من شؤونِ الحياةِ صغيرِها وكبيرِها.

وهم الثابتونَ في أُصولِ الدينِ وفروعِه على ما أنزلَه اللهُ وحياً على عبدِه ورسولِه وخيرته من خلقِه محمد بن عبدِاللهِ ﷺ.

هم القائمونَ بالدعوةِ إلى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ - قولاً وفعلاً وعملاً - بكلِّ جدٍّ، وعزمٍ، وصدقٍ، وثباتٍ.

هُم الَّذينَ امتشقوا حسامَ العلمِ، وتسنَّموا غاربَ الحقِّ؛ لينفوا عن الدينِ وأهلِه تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المُبطلينَ، وتأويلَ الجاهلينَ.

---

(١) وقد أوردتُ أقوالهم معزوةً إلى مصادرها في كتابي: «اللآلئ المنثورة في أوصاف الطائفة المنصورة».

وكذلك بسطها الأخ الكبير الشيخ أبو محمد ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله ورعاه في كتابه: «أهل الحديث هم الطائفة المنصورة والفرقة الناجية».

(٢) مأخوذ - بتصرف - من جزء «مكانة أهل الحديث» لأخينا الكبير الشيخ ربيع بن هادي -حفظه الله ورعاه-.

هم الَّذينُ يُجاهدونَ كلَّ الفرقِ الَّتي حادت عن منهجِ الصحابةِ سواءٌ أكانت معتزلةً، أو جهميّةً، أو خوارجَ، أو شيعةً روافضَ، أو مرجئةً، أوْ صوفيّةً، أو باطنيّةً، وكلَّ من حادَ عن الهدى، واتبعَ الهوى في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، لا تأخذهم في اللهِ لومةُ لائمٍ.

هم الَّذينَ يَعملونَ على تحقيقِ قولِ اللهِ: **﴿واعتصموا بحبلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا﴾** [آل عمران: ١٠٧].

هم الَّذينَ يَطبقونَ قولَ اللهِ تعالى: **﴿فليحذر الَّذينَ يُخالفونَ عن أمرِه أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليمٌ﴾** [النور: ٦٣].

وقوله: **﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضى الله ورسولُه أمراً أن يَكونَ لهم الخيرةُ من أمرِهم﴾** [الأحزاب: ٣٦].

فكانوا أشدَّ الناسِ بُعداً عن مُخالفةِ أمرِ اللهِ ورسولِه، وأبعدَهم عن الفتنِ ما ظهرَ منها وما بَطنَ.

هم الَّذينَ جَعلوا دستورَهم: **﴿فلا وربّكَ لا يُؤمنونَ حتَّى يُحكّموكَ فيما شجرَ بينَهم ثمَّ لا يَجدوا في أنفسِهم حَرجاً ممّا قَضيتَ ويسلّموا تَسليماً﴾** [النساء: ٦٥].

فقدروا نُصوصَ الكتابِ والسنّةِ حقَّ قدرها، فقدَّموها على أقوالِ البشرِ جَميعاً، واحتكموا إليها عن رضىً كاملٍ، وصدورٍ منشرحةٍ بلا ضيقٍ ولا حرجٍ، وسلَّموا للهِ ورسولِه تَسليماً كاملاً في عقائدِهم، وعباداتِهم، ومعاملاتِهم، وأخلاقِهم، وكلِّ شأنٍ من شؤونِ حياتِهم.

والسلفُ أهلُ الحديث بهذا المعنى تنداحُ دائرتُهم حتَّى تشملَ أُلوفاً من العُلماءِ العاملينَ الَّذينَ وعت ذاكرةُ التاريخِ أسماءهم، وامتلأت بُطونُ الأسفارِ بذكرِهم، وعلّوا هامةَ الزمنِ بعلمِهم وفضلِهم وعملِهم.

ومن أرادَ أن يَقفَ على حقيقتِهم فما عليه إلّا أن يَعودَ إلى هاتيكَ الكتبِ والأسفارِ، ودونَكَ طبقاتهم.

هم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ جَميعاً الَّذينَ آمنوا به، ورأوه، وماتوا على الإسلامِ، وعلى رأسِهم الخُلفاءُ الرَّاشدونَ، ثمّ بقية العشرة المبشرين بالجنّة.

هم سادةُ التابعينَ وعلى رأسِهم: أُويسٌ القرنيّ، وسعيدُ بنُ المسيَّبِ، وعُروةُ ابنُ الزبيرِ، وسالمُ بنُ عبدِالله بن عمرَ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبةَ بن مسعود، ومحمد بنُ الحنفيّة، وعليّ بنُ الحسن زين العابدين، والقاسمُ بنُ محمد بن أبي بكرٍ الصديق، والحسن البصري، ومحمد بن سيرينَ، وعمر بن عبدِالعزيز، ومحمد بن شهاب الزهريّ.

هم أتباعُ التابعينَ وعلى رأسهم: مالك بن أنسٍ، والأوزاعيُّ، وسُفيانُ الثوريّ، وسفيانُ بن عيينةَ الهلالي، والليثُ بنُ سعدٍ.

ثمَّ من تبعهم وعلى رأسهم: عبد اللهِ بنُ المباركِ، ووكيعٌ، والشافعيُّ، وعبدُ الرحمن بنُ مهدي، ويحيى القطّان.

ثمَّ تلاميذُهم الَّذين اتبعوا منهجَهم وعلى رأسِهم: أحمدُ بنُ حنبلٍ، ويحيى بن معينٍ، وعليّ بن المديني.

ثمَّ تلاميذهم وعلى رأسهم: البخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو حاتمٍ، ، وأبو زُرعةَ، والترمذيّ، وأبو داودَ، والنسائيُّ.

ثمَّ من جرى مجراهم عبرَ الأجيالِ المتلاحقةِ كابنِ جريرٍ الطبريّ، وابنِ خزيمةَ، وابنِ قُتيبةَ الدنيوري، والخطيبِ البغدادي، وابنِ عبدِالبرّ النمري، وعبدِالغني المقدسي، وابنِ الصلاحِ، وابنِ تيميّةَ شيخِ الإسلامِ، والمزّي، وابنِ كثيرٍ، والذهبيّ، وابنِ قيمِ الجوزيّةَ، وابنِ رجبٍ الحنبليّ.

ثمَّ من تلاهم واقتفى أثرَهم في التمسكِ بالكتابِ والسنّةِ وفهمِهما بفهمِ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم إلى أن يأتيَ أمرُ اللهِ، ويقاتلَ آخرُهم الدَّجالَ.

هؤلاءِ الَّذينَ نَعني بهم السلفَ أهلَ الحديث.

وما من شكٍّ أنَّ هذه النسبةَ لا تكونُ حقيقيةً إلّا إذا كان عملُ مدعيها مطابقاً للمنهجِ النبويّ.

وهل يتصورُ عاقلٌ أن تكونَ هذه النسبةُ مقيلة عثرةً؟ أو مزيلةً ارتياباً؟ أو محققةً فضلاً بمجردِ دعواها؟ أو التذبذب عن منهاجِها عُلوّاً وسفلاً، أخذاً وردّاً كما يهوى صاحبُها.

وهذه النسبةُ تَقتضي من مدعيها أن يُصدقَ مع الإسلامِ في دعواه حتّى تكونَ دعواه صادقةً لا شيةَ فيها.

وأيُّ إنسانٍ على توالي القرونِ، وتتابعِ الأجيالِ، لا يصدقُ في دعواه هذه النسبةَ إلّا بأن يَكونَ موصولاً بالمنهجِ النبويِّ في عقيدته وسلوكه وعبادته لا يصدرُ إلّا عنه، ولا يفيء إلّا إليه حتّى يَلقى ربّه.

ورحمَ اللهُ شيخَ الإسلامِ؛ فقد جمعَ ذلكَ كلَّه في كلمةٍ نَفيسةٍ في «مجموع الفتاوى» (٤ / ٩٥) فقالَ:

«ونحنُ لا نعني بأهلِ الحديثِ المقتصرينَ على سماعِه، أو كتابته، أو روايته، بل نَعني بهم كلَّ من كانَ أحقَّ بحفظِه ومعرفتِه وفهمِه ظاهراً وباطناً، واتباعه باطناً وظاهراً، وكذلكَ أهلُ القرآنِ.

وأدنى خَصلةٍ في هؤلاءِ: محبةُ القرآنِ والحديثِ، والبحثُ عنهما وعن معانيهما، والعملُ بما عَلموه من موجبهما، ففقهاءُ الحديثِ أخبرُ بالرسولِ من فقهاءِ غيرِهم، وصوفيتُهم[1]. أتبعُ للرّسولِ من صوفيّةِ غيرِهم، وأُمراؤهم أحقُّ بالسياسةِ النبويّةِ من غيرِهم، وعامتهم أحقُّ بموالاةِ الرّسولِ من غيرِهم».

☐ **ثالثاً: تنبيه لكلِّ نَبيهٍ.**

فإن قيلَ: لِمَ لَمْ ينتسبوا للقرآنِ؛ فيقالَ: أهلُ القرآنِ؟

قلتُ: ألم تسمع ما قالَه العلّامةُ الهُمامُ أبو القاسمِ هبةُ اللهِ بن الحسنِ اللالكائيُّ المتوفّى سنةَ ٤١٨هـ رحمه الله في كتابِه الفذّ: «شرح أُصول اعتقاد أهل السنّةِ والجماعةِ» (١ / ٢٣ - ٢٥):

«ثمّ كلُّ من اعتقدَ مذهباً فإلى صاحبِ مقالتِه الّتي أحدثَها ينتسبُ، وإلى رأيه يستندُ، إلّا أصحابَ الحديثِ فإنَّ صاحبَ مقالتِهم رسولُ اللهِ ﷺ، فهم إليه يَنتسبونَ، وإلى علمِه يستندونَ، وبه يستدّلونَ، وإليه يَفزعونَ، وبرأيه يَقتدونَ،

(١) ليس مُراده الصّوفية كطائفةٍ لها عقائدُها وافكارُها المنحرفة عن الإسلام؛ كما بينته في كتابي «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم سلف الأمّة» (ص٨٢ - ١٥٢)، وإنّما قصده الزّهاد، والله أعلم.

وبذلكَ يَفتخرونَ، وعلى أعداءِ سنته بقربهم منه يصولونَ، فمن يُوازيهم في شرفِ الذكرِ، ويباهيهم في ساحةِ الفخرِ، وعلوِّ الاسم؟!

إذ اسمهم مأخوذٌ من معاني الكتابِ والسُّنَّةِ، يَشتملُ عليهما لتحققِهم بهما، أو لاختصاصِهم بأخذِها، فهم مترددونَ في انتسابِهم إلى الحديثِ بينَ ذكرِ اللهِ سبحانَه وتعالى في كتابِه؛ فقالَ تعالى ذكرُه: ﴿الله أنزلَ أحسنَ الحديثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو القرآنُ، فهم حملةُ القرآنِ وأهلُه وقُرّاؤه وحفظته، وبينَ أن ينتموا إلى حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فهم نقلتُه وحملتُه فلا شكَّ أنهم يَستحقونَ هذا الاسمَ لوجودِ المعنيينِ فيهم لمشاهدتنا أنَّ اقتباسَ النَّاسِ الكتابَ والسنّةَ منهم، واعتمادَ البريّةِ في تصحيحهما عليهم، لأنّا ما سَمعنا عن القرونِ الّتي قَبلنا ولا رأينا نحنُ في زماننا مبتدعاً رأساً في إقراءِ القرآنِ، وأخذ الناسُ عنه في زمنٍ من الأزمانِ، ولا ارتفعت لأحدٍ منهم رايةٌ في روايةِ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فيما خَلت من الأيّامِ، ولا اقتدى بهم أحدٌ في دينٍ ولا شريعةٍ من شرائعِ الإسلامِ[1].

---

(١) يَخبرُ اللالكائيُ - رحمه اللهُ - عن أزمانٍ كانَ الإسلامُ فيها عَزيزاً، والعلمُ النبويُّ مَنيعاً، لم تمسّه أيدي المبتدعةِ، ولكننا في زمانِ الغربةِ نَرى كثيراً من المبتدعةِ قرّاءً للقرآنِ ودارسينَ للحديثِ النبويّ، فلم ندهش، ولمن نستوحشِ؛ لأننا علمنا توجيهه في السنّةِ النبويّةِ الصحيحةِ المطهرةِ، حيثُ أخبرَ الرّسولُ ﷺ عن هذا الواقعِ الّذي ماله من دافع إلّا أن يتداركَنا اللهُ بكرمه، ويفرغُ علينا رحمته، فليستيقظ طلابُ العلمِ الشرعيّ على حقيقةِ هذا الأمرِ، فيعرفو عمّن يأخذونَ دينَهم.

لقد قالَ ﷺ:

«إنَّ من أشراطِ الساعةِ أن يُلتمسَ العلمُ عندَ الأصاغرِ».

أخرجه ابنُ المباركِ في «الزهد» (٦١)، واللالكائيُّ في «شرحِ أُصولِ اعتقادِ أهلِ السنّةِ والجماعة» (١٠٢) من طريقِ ابنِ لَهيعةَ عن بكرِ بنِ سوادةَ عن أبي أُميةَ الجُمحيِّ مرفوعاً.

قلتُ: وهذا إسنادٌ صَحيحٌ؛ لأنَّ حديثَ ابنِ لَهيعةَ صحيحٌ إذا كانَ من طَريقِ العبادلةِ عنه، وابنُ المُبارك منهم.

قالَ ابنُ المباركِ: الأصاغرُ أهلُ البدعِ.

وله شاهدٌ من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه في حكمِ المرفوعِ؛ لأنّه لا يُقالَ من قبلِ الرّأي والاجتهادِ، ولفظه:

«لا يَزالُ الناسُ بخيرٍ ما أتاهم العلمُ من أصحابِ محمدٍ ﷺ وأكابرِهم، فإذا أتاهم العلمُ من قبلِ أصاغرِهم فذلكَ حينَ هَلكوا».
=

والحمدُ للهِ الَّذي كمَّلَ لهذه الطائفةِ سهامَ الإسلامِ، وشرَّفهم بجوامعِ الأقسامِ، وميَّزهم وهداهم إلى طريقته وطريقةِ رسولِه، فهي الطائفةُ المنصورةُ، والفرقةُ الناجيةُ، والعصبةُ الهاديةُ، والجماعةُ العادلةُ المتمسكةُ بالسنةِ الَّتي لا تَريدُ برسولِ اللهِ بَديلاً، ولا عن قولِه تَبديلاً، ولا عن سنتِه تَحويلاً، ولا يَثنيهم عنها تقلّبُ الأعصارِ والزمانِ، ولا يَلويهم عن سمتِها تغيّرُ الحدثانِ، ولا يصرفهم عن سمتِها ابتداعُ من كادَ الإسلامَ ليصدَّ عن سَبيلِ اللهِ ويَبغيها عوجاً، ويصرفُ عن طرقِها جَدلاً ولجاجاً، ظنّاً منه كاذباً، وتخميناً باطلاً، أنّه يُطفئُ نورَ اللهِ، واللهُ متمُّ نورِه ولو كره الكافرونَ».

٤ - أهل السنّة والجماعةِ

والكلامُ على «أهلِ السنّةِ والجماعةِ» من وُجوه:

□ أوّلاً: سببُ تسميتِهم بذلكَ

قالَ شيخُ الإسلامِ في «مجموع الفتاوى» (٣ / ١٥٧) مُبيّناً ذلكَ:

= أخرجه ابنُ المُباركِ (٨٥١)، واللالكائيُّ (١٠١) وغيرُهم.

فإن قيلَ: ألم يَقل رسولُ اللهِ ﷺ:

«يَحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، ينفونَ عنه تَحريفَ الغالينَ، وانتحال المُبطلينَ وتأويل الجاهلينَ»(☆).

قلتُ: بلى، ولكن ألم تقرأ ما كتبَه النووي - رحمه اللهُ - في «تهذيبِ الأسماء واللغاتِ» (١ / ١٧) فقالَ بعدَ أن ذَكرَ هذا الحديثِ:

«وهذا إخبارٌ منه ﷺ بصيانةِ العلمِ وحفظِهِ وعدالةِ ناقليه، وأنَّ اللهَ تعالى يوفقُ له في كلِّ عصرٍ خَلَفاً من العدولِ يَحملونَه ويَنفونَ عنه التحريفَ، وما بعده فَلا يَضيعُ وهذا تَصريحُ بعدالةِ حامليه من كلِّ عصرٍ، وهكذا وَقَعَ وللهِ الحمدُ، وهذا من أعلامِ النبوةِ، ولا يَضرُّ مع هذا كونُ بعضِ الفسّاقِ يَعرفُ شيئاً من العلمِ، فإنَّ الحديثَ إنّما هو إخبارٌ بأنَّ العدولَ يَحملونَه لا انَّ غيرَهم لا يَعرفُ شيئاً منه، واللهُ أعلمُ».

وقد زدتُ المسألةَ بسطةً في «حلية العالمِ المعلم وبلغة الطالب المتعلم» وهي من منشوراتِ دار التوحيد - الرياض.

(☆) حسن لغيره؛ كما بينته في جزءٍ مفرد سمّيته «تحرير التقول في تصحيح حديث العدول».

«ثمَّ من طريقةِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ اتباعُ آثارِ رسولِ اللهِ ﷺ باطناً وظاهراً، واتباعُ سبيلِ السابقينَ الأوَّلينَ من المهاجرينَ والأنصارِ، واتباعُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ قالَ: «عليكم بسنتي وسنةِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ المهديينَ من بعدي، تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذِ، وإيَّاكم ومُحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»(١).

ويَعلمونَ أنَّ أصدقَ الكلام كلامُ اللهِ، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرونَ كلامَ اللهِ على كلامِ غيرِه من كلامِ أصنافِ النّاسِ، ويُقدّمونَ هدى محمد ﷺ على هدى كلِّ أحدٍ، **وبهذا سمّوا أهلَ الكتابِ والسنّةِ.**

وسُمّوا أهلَ الجماعةِ؛ لأنَّ الجماعةَ هي الاجتماعُ، وضدّها الفرقةُ، وإن كانَ لفظُ الجماعةِ قد صارَ اسماً لنفسِ القومِ المُجتمعينَ.

والإجماعُ هو الأصلُ الثالثُ الَّذي يُعتمدُ عليه في العلمِ والدينِ.

وهم يَزنونَ بهذه الأصولِ الثلاثةِ جميعَ ما عليه الناسُ من أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ ممّا يَتعلقُ بالدينِ.

والإجماعُ الَّذي ينضبطُ هو ما كانَ عليه السلفُ الصالحُ؛ إذ بعدَهم كثُرَ الاختلافُ وانتشرت الأمّةُ».

وبيّنَ في «منهاجِ السنّةِ» أنَّ مذهبَهم قَديم، لا يُنسبُ إلى فردٍ أو طائفةٍ فقالَ:

«ومذهبُ أهلِ السنّةِ والجماعةِ قديمٌ معروفٌ قبلَ أن يَخلقَ اللهُ أبا حنيفةَ ومالكاً والشافعيَّ وأحمدَ، فإنَّه مذهبُ الصحابةِ الَّذينَ تلقوه عن نبيهم، ومن خالفَ ذلكَ كانَ مُبتدعاً عندَ أهلِ السنّةِ».

ثمَّ بيَّنَ سببَ نسبةِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ إلى الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحمه اللهُ فقالَ:

«وأحمدُ بن حُنبلٍ وإن كانَ قد اشتهرَ بإمامةِ أهلِ السنّةِ والصبرِ في المحنةِ؛ ليسَ

---

(١) سيأتي تخريجه.

ذلكَ لأنّه انفردَ بقولٍ أو ابتدعَ قولاً، بل لأنَّ السنّةَ الّتي كانت موجودةً معروفةً قبلَه عَلِمَها ودَعا إليها، وصبرَ على من امتحنَه ليفارقَها».

□ **ثانياً: أهلُ السنّةِ والجماعةِ هم الفرقةُ الناجيةُ والطائفةُ المنصورةُ وأهلُ الحديثِ.**

قالَ شيخُ الإسلامِ في مجموعِ الفتاوى (٣ / ١٢٩):

«أمّا بعدُ؛ فهذا اعتقادُ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ أهل السنّةِ والجماعةِ».

وقالَ (٣ / ١٥٩):

«وطريقُهم هي دينُ الإسلامِ الّذي بَعَثَ اللهُ به محمداً ﷺ، لكن لما أخبرَ النّبيُّ ﷺ أنَّ أُمتَه ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، كلُّها في النارِ إلّا واحدةً، وهي الجماعةُ، وفي حديثٍ عنه ﷺ أنّه قالَ: «هم من كانَ على مثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصحابي» صارَ المتمسكونَ بالإسلامِ المحضِ الخالصِ عن الشوبِ: هم أهلُ السنّةِ والجماعةِ؛ وفيهم الصدّيقونَ والشهداءُ والصالحونَ، ومنهم أعلامُ الهدى، ومصابيحُ الدُّجى، أولوا المناقبِ المأثورةِ، والفضائلِ المذكورةِ، وفيهم الأبدالُ: الأئمةُ الّذينَ أجمعَ المسلمونَ على هدايتِهم ودرايتِهم.

وهم الطائفةُ المنصورةُ الّذينَ قالَ فيهم النّبيُّ ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ من أُمتي على الحقِّ ظاهرينَ لا يَضرُّهم من خَذَلَهم حتّى تَقومَ الساعةُ».

فنسألُ اللهَ العظيمَ أن يَجعلَنا منهم، وأن لا يزيغَ قُلوبَنا بعدَ إذ هدانا، ويهبَ لنا من لدنّه رحمةً إنّه هو الوهابُ، واللهُ أعلمُ».

وقالَ (٣ / ٣٤٥):

«ولهذا؛ وصفَ الفرقةَ الناجيةَ بأنّها أهلُ السنّةِ والجماعةِ، وهم الجمهورُ الأكبرُ، والسوادُ الأعظمُ».

وقالَ (٣ / ٣٤٧):

«وبهذا يتبيّنُ أنَّ أحقَّ الناسِ بأن تكونَ هي الفرقة الناجية أهل الحديث

والسُّنّةِ؛ الّذينَ ليسَ لهم متبوعٌ يَتعصبونَ له إلّا رسولَ اللهِ ﷺ، وهم أعلمُ الناسِ بأقوالِه وأحوالِه، وأعظمُهم تمييزاً بينَ صحيحِها وسقيمِها، وأئمتهم فقهاءُ فيها، وأهلُ معرفةٍ بمعانيها واتباعاً لها؛ تصديقاً وعملاً وحُبّاً وموالاةً لمن والاها، ومعاداةً لمن عاداها، الّذينَ يردّونَ المقالاتِ المجملةَ إلى ما جاءَ به من الكتابِ والحكمةِ، فَلا ينصبونَ مقالةً ويَجعلونَها من أُصولِ دينِهم وجُملِ كلامِهم إن لم تكن ثابتةً فيما جاءَ به الرسولُ، بل يَجعلونَ ما بُعثَ به الرّسولُ من الكتابِ والحكمةِ هو الأصل الّذي يعتقدونَه ويَعتمدونَه».

□ **ثالثاً: بينَ أهلِ السنّةِ والجماعةِ والسلفيّةِ:**

انتحلَ كثيرٌ من الطوائفِ المبتدعةِ والفرقِ الضالّةِ اسمَ أهلِ السنّةِ والجماعةِ، ليجتالوا عامةَ المسلمينَ عن فطرتِهم.

قالَ شيخُ الإسلامِ في «مجموعِ الفتاوى» (٣ / ٣٤٦):

«فكثيرٌ من النّاسِ يُخبرُ عن هذه الفرقِ بحكمِ الظنّ والهوى؛ فيجعل طائفته والمنتسبةَ إلى متبوعه الموالية له هم أهلَ السنّةِ والجماعةِ، ويجعلُ من خالفَها أهلَ البدعِ، وهذا ضلالٌ مُبينٌ، فإنَّ أهلَ الحقِّ والسنّةِ والجماعةِ لا يَكونُ متبوعُهم إلّا رسولَ اللهِ ﷺ».

وبعضُهم عدَّ الأشاعرةَ طليعةَ أهلِ السنّةِ والجماعةِ كما صنعَ عبدُ القاهرِ بن طاهر البغداديُّ المتوفى ٤٢٩هـ في «الفَرْق بينَ الفِرقِ» (ص ٣١٣) فقالَ:

«اعلموا - أسعدَكم اللهُ - أنَّ أهلَ السنّةِ والجماعةِ ثمانيةُ أصنافٍ:

صنفٌ منهم أحاطوا علماً بأبوابِ التوحيدِ والنبوّةِ، وأحكامِ الوعدِ والوَعيدِ، والثوابِ والعقابِ، وشروطِ الاجتهادِ، والإمامةِ، الزعامةِ، وسَلَكوا في هذا النوعِ من العلمِ طُرَقَ الصفاتيّة من المتكلمينَ الّذينَ تبرؤوا من التشبيه والتعطيلِ، ومن بدعِ الرّافضةِ والخوارجِ والجهميّةِ والنجاريّةِ، وسائرِ أهلِ الأهواءِ الضالّةِ».

وزعمَ بعضُ المتأخرينَ أنَّ الأمةَ الإسلاميّةَ أسلمت قيادَها في العقائدِ للأشاعرةِ والماتريديةِ.

قالَ سَعيدُ حوّى في «جولات في الفقهينِ» (ص ٢٢ و٦٦ و٨١ و٩٠):

«وسلَّمت الأمةُ في قضايا الاعتقادِ لاثنينِ؛ أبو الحسنِ الأشعريِّ، وأبو منصور الماتريديّ».

وقالَ الزَّبيديُّ في «إتحاف السادةِ المتقينَ» (٢ / ٦):

«إذا أُطلقَ أهلُ السنّةِ والجماعةِ فالمرادُ بهم الأشاعرةُ والماتريديّة. . . .».

لقد أصبحَ مصطلحُ «أهل السنّةِ والجماعةِ» فضفاضاً يَدخلُ فيه مَنْ عندَه انحرافٌ في العقيدةِ وبخاصةٍ الصفاتِ الإلهيّةِ، ولذلكَ يَنبغي استعمالُ كلمة «السَّلفيّة» للدلالةِ على الفرقةِ الناجيةِ، والطائفةِ المنصورةِ، والغرباءِ، وأهلِ الحديثِ.

قالَ بعضُ الدُّعاة ممّن يُصرُّ على استعمالِ كلمةِ «أهلِ السنّةِ والجماعةِ»:

أرأيتم إن جاءَ أَقوامٌ وادعوا السلفيّةَ، وكانوا من هذه الطوائفِ المنحرفةِ، فهل ستتركونَ كلمةَ «السَّلفيّة» إلى كلمةٍ أُخرى؟

○ **والجوابُ من وُجوه:**

١- أنَّ هذا افتراضٌ يَلزمُ منه الدور، والدَّورُ باطلٌ.

٢- أنَّ هذا افتراضٌ لمسألةٍ لم تَقع بعدُ، ولقد كره السَّلفُ رحمهم اللهُ السؤالَ عن الأمورِ الافتراضيّةِ والمسائلِ الآرائيّةِ.

٣- أنَّ ادعاءَ هذه الطوائفِ الَّتي لم نَرها، ولم نَسمع بها للمنهجِ السَّلفيّ هدمٌ لأفكارِها؛ لأنَّ المنهجَ السلفيَّ يُفْتَرَضُ أن يتبعَ سالكه سَبيلَ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم، يوضحه:

٤- أنَّ كلَّ الطوائفِ المنتسبةِ لأهلِ السنّةِ والجماعةِ لا يَجرؤُ أحدٌ منهم أن يَقولَ: أنا سَلفيٌّ.

٥- أنَّ الطوائفَ المشهورةَ بالبدعةِ لا تدّعي مذهبَ السَّلفِ ولا تنتحلُه.

قالَ شيخُ الإسلامِ في «مجموع الفتاوى» (٤ / ١٥٥): «فالمقصودُ هنا أنَّ المشهورينَ من الطوائفِ - بينَ أهلِ السنّةِ والجماعةِ - العامةِ بالبدعةِ ليسوا منتحلينَ للسلفِ، بل أشهرُ الطوائفِ بالبدعةِ الرَّافضةُ، حتَّى أنَّ العامّةَ لا تعرفُ شعارَ البدعِ إلّا الرَّفضَ، والسنّيُّ في اصطلاحهم من لا يَكونُ رافضيّاً، وذلكَ لأنهم أكثرُ مخالفةً

للأحاديثِ النبويّةِ ولمعاني القرآنِ، وأكثرُ قدحاً في سلفِ الأمةِ وأئمّتِها، وطعناً في جُمهورِ الأمّةِ من جميعِ الطوائفِ، فلمّا كانوا أبعدَ عن متابعةِ السلفِ كانوا أشهرَ بالبدعةِ.

فعُلِمَ أنَّ شعارَ أهلِ البدعِ: هو تركُ انتحالِ اتباعِ السَّلفِ، ولهذا قالَ الإمامُ أحمدُ في رسالةِ عبدوس بنِ مالكٍ: «أصولُ السنّةِ عندنا التمسكُ بما كانَ عليه أصحابُ النبيِّ ﷺ».

ثمّ قالَ (٤ / ١٥٦):

«أمّا أنْ يَكونَ انتحالُ السَّلفِ من شعارِ أهلِ البدع فهذا باطلٌ؛ فإنَّ ذلكَ غيرُ ممكنٍ إلّا حيثُ يَكثرُ الجهلُ ويقلُّ العلمُ» أ.هـ

ولذلكَ فإنّنا نستشرفُ من وراءِ هذا الإصرارِ تمييعاً للدعوةِ السَّلفيّةِ القائمةِ على الكتابِ وصحيحِ السنّةِ بفهمِ السلفِ الصالحِ، لإدخالِ كلِّ الطوائفِ المنتسبةِ إلى المذاهب الأربعةِ الفقهيّةِ في دائرةِ أهلِ السنّةِ والجماعةِ... إنَّ وراءَ الأكمةِ ما وراءها.

فإن قيلَ: هذا لم يَخطر ببالِنا، واللهُ أعلمُ بحالنا.

قلتُ: لله درُّ القائلِ:

فإن كنتَ لا تدري فتلكَ مُصيبةٌ
أو كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ

ولولا أنَّ هذا كتابُ تأصيلٍ؛ لزدت بسطَةً في التّفصيلِ.

□□□□□

هل الصحابة رضوانُ اللهِ عليهم عندَهم منهجٌ علميٌّ؟

وردت الأحاديثُ تبيّنُ أنَّ الصحابةَ رضي اللهُ عنهم عندَهم منهجٌ علميٌّ دقيقٌ في الاستدلالِ والاستنباطِ، منها:

١- حديثُ العرباضِ بن ساريةَ رضي اللهُ عنه عن النَّبيِّ ﷺ:

«أوصيكم بتقوى اللهِ والسمعِ والطاعةِ، وإن عبداً حبشيّاً، فإنَّه من يَعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثاتِ الأمورِ فإنَّها ضلالةٌ، فمن أدركَ ذلكَ منكم فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ عضّوا عليها بالنواجذِ»[1].

اعلم أخا الإيمانِ أرشدكَ اللهُ للحقِّ: أنَّ هذا العطفَ لا يُفيدُ أنَّ للخلفاءِ الرَّاشدينَ سنّةً تتبعُ غير سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، بل أنَّهم اتبعوا سنتَه ﷺ حذوَ القذَّةِ بالقُذَّةِ، لذلكَ وُصفوا بالهدايةِ والرشدِ، فأضافَها لهم لأنَّهم أحقُّ بها وأهلُها، وأولى الناسِ بفهمِها.

---

(١) **صحيح**؛ أخرجَه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣ و٤٤) من طريقِ عبدِالرَّحمنِ بن عمرو السُّلَميّ عنه به.

قلتُ: هو تابعيٌّ روى عنه جمعٌ من الثقاتِ، ووثقه ابن حبّان.

وتابعه حجرُ بن حجر عند أبي داود وابن حبان في «صحيحه» (٥)، وابن أبي عاصمٍ في «السنةِ» (٣٢، ٥٧).

وهو تابعيّ لم يروِ عنه غير خالد بن معدان، ووثقه ابن حبان.

وللحديثِ طريقٌ آخر عن يحيى بن أبي المطاع قالَ: سمعتُ العرباضَ بن ساريةَ وذكرَ نحوه.

أخرجه ابن ماجه (٤٢)، والحاكمُ (١ / ٩٧).

ورجاله ثقاتٌ غير أنَّ دُحيماً أشارَ أنَّ روايةَ يحيى بن أبي المطاع عن العرباضِ مرسلة:

قلتُ: وقد صرَّحَ يحيى بالسماعِ من العرباضِ، والسندُ إليه صحيحٌ، واللهُ أعلم.

وللحديثِ طرق أخرى؛ فهو ثابتٌ لا رَيبَ فيه.

وقد اتفقَت كلمةُ أهلِ العلمِ على تصحيحه والاحتجاج به، ولم يشذَّ إلّا ابن القطان الفاسي، وللرّدِ عليه وعلى مقلديه موضع آخر - إن شاءَ اللهُ تعالى -.

وهذا الفهمُ تواترَ عن أهل العلم.

١- صرَّح ابن حزمٍ الأندلسيّ رحمه اللهُ في كتابِه المُستطابِ: «الإحكام في أصولِ الأحكام» (٦ / ٧٦ - ٧٨):

«وأمّا قولُه عليه السلامُ: «عليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ» فقد علمنا أنَّه عليه السلامُ **لا يأمرُ بما لا يَقدرُ عليه**، ووجدنا الخُلفاءَ الرّاشدينَ بعدَه عليه السلامُ قد اختلفوا اختلافاً شديداً، فلا بدَّ من أحدِ ثلاثةِ أوجهٍ لا رابعَ لها:

إما أن نأخذَ بكلٍّ ما اختلفوا فيه، وهذا ما لا سَبيلَ إليه، ولا يُقدرُ عليه، إذ فيه الشيءُ وضدُه، ولا سَبيلَ إلى أن يُورِّثَ أحدٌ الجدَّ دونَ الإخوةِ بقولِ أبي بكرٍ وعائشةَ، ويورثه الثلثَ فقط وباقي ذلكَ للإخوةِ على قولِ عُمرَ، ويورثه السدسَ وباقيه للإخوةِ على مذهبِ عليٍّ.

وهكذا في كلٍّ ما اختلفوا فيه، فبطلَ هذا الوجهُ؛ لأنَّه ليسَ في استطاعةِ الناسِ أن يَفعلوه، فهذا وجهٌ.

أو يَكونَ مُباحاً لنا أن نأخذَ بأيٍّ شئنا، وهذا خُروجٌ عن الإسلامِ؛ لأنَّه يُوجبُ أن يَكونَ دينُ اللهِ تعالى موكولاً إلى اختيارنا، فيُحرم كلُّ واحدٍ منّا ما يَشاءُ، ويُحلُّ ما يَشاءُ، ويُحرّمُ أحدُنا ما يحلله الآخرُ.

وقولُه تعالى: **﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم﴾**، وقوله تعالى: **﴿تِلكَ حُدودُ اللهِ فَلا تَعْتَدوها﴾**، وقوله تعالى: **﴿ولا تَنازَعوا﴾**، يُبطلُ ذلكَ الوجهَ الفاسدَ، ويُوجبُ أنَّ ما كانَ حراماً حينئذٍ فهو حرامٌ إلى يومِ القيامةِ، وما كانَ واجباً يومئذٍ فهو واجبٌ إلى يومِ القيامةِ، وما كانَ حلالاً يومئذٍ فهو حلالٌ إلى يومِ القيامةِ.

وأيضاً فلو كانَ هذا لكنّا إذا أخذنا بقولِ الواحدِ منهم فقد تركنا قولَ الآخرِ منهم، ولا بدَّ من ذلكَ فلسنا حينئذٍ متبعينَ لسنتِهم، فقد حصلنا في خلافِ الحديثِ المذكورِ، وحصّلوا فيه شاءوا أو أبوا.

ولقد أذكرنا هذا مُفتياً كانَ عندنا بالأندلسِ وكانَ جاهلاً فكانت عادتُه أن يتقدَّمَه رجلانِ كانَ مدارُ الفُتيا عليهما في ذلكَ الوقتِ، فكان يَكتبُ تحتَ فتياهُما: أقولُ بما قالَه الشيخانِ.

فقضي أنَّ ذينك الشيخينِ اختلفا، فلمّا كتبَ تحتَ فتياهُما ما ذكرنا.

قالَ له بعضُ من حضرَ: إنَّ الشيخينِ اختلفا؟!

فقالَ: وأنا أختلفُ باختلافِهما[1].

قال أبو محمّد: فإذ قد بطلَ هذانِ الوجهانِ فلم يَبقَ إلّا الوجهُ الثالثُ وهو:

أخذنا ما أجمعوا عليه، وليسَ ذلكَ إلّا فيما أجمعَ عليه سائرُ الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم معهم، وفي تتبعهم سننَ النبيِّ ﷺ، والقول بها.

وأيضاً فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إذ أمرَ باتباعِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ لا يَخلو ضرورةً من أحدِ وجهين:

إمّا أن يَكونَ عليه السلامُ أباحَ أن يسنّوا سنناً غيرَ سنته، فهذا ما لا يَقولُه مسلمٌ، ومن أجازَ هذا فقد كَفرَ، وأرتدَّ، وحلَّ دمُه ومالُه، ولأنَّ الدينَ كلَّه إمّا واجبٌ أو غيرُ واجبٍ، وإمّا حرامٌ، وإمّا حلالٌ لا قسمَ في الديانةِ غير هذه الأقسامِ أصلاً، فمن أباحَ أن يَكونَ للخلفاءِ الرَّاشدينَ سنةٌ لم يسنّها رسولُ اللهِ ﷺ فقد أباحَ أن يُحرموا شيئاً كانَ حلالاً على عهده عليه السلامُ إلى أن ماتَ، أو أن يُحلّوا شيئاً حرَّمه رسولُ اللهِ ﷺ، أو أن يُوجبوا فريضةً لم يُوجبها رسولُ اللهِ ﷺ، أو أنْ يسقطوا فريضةً فرضها رسُولُ الله ﷺ ولم يسقطها إلى أن مات، وكلّ هذه الوجوه من جوّزَ منها شيئاً فهو كافرٌ مشركٌ بإجماعِ الأمّةِ كلِّها بلا خلافٍ، وباللهِ تعالى التوفيقُ، فهذا الوجه قد بطلَ وللهِ الحمدُ.

وإمّا أن يكونَ باتباعهم في اقتدائهم بسنّته عليه السلامُ، فهكذا نَقولُ ليسَ يَحتملُ هذا الحديثُ وَجهاً غيرَ هذا أصلاً» أ.هـ

٢- قال شيخُ الإسلامِ ابن تيميّةَ الحرَّانيّ رحمه اللهُ في «مجموعِ الفتاوى» (١ / ٢٨٢):

---

(١) هذ مثالٌ للمتعالمِ الّذي زببَ قبلَ أن يُحصرمَ، وراشَ قبلَ أن يبرى، فصنعَ حلائبَ النزالِ ظانّاً أنّه من العمالقةِ حيثُ صرعَ نفسَه والعامّةَ؛ لأنّه يحسنُ فنَّ العرضِ والتمثيلِ، وعرضَ العضلاتِ، ولكنّه إذا وضع تحتَ المحكِّ والتوثيقِ كشفته شواهدُ الامتحانِ فخرَّ صريعاً؛ لأنّه لا يَقوى على التحليقِ في سماواتِ الإجادةِ بأجنحةٍ من علمٍ غزيرٍ، وإدراكٍ بصيرٍ.

«وأمّا سنةُ الخلفاءِ الرّاشدينَ فإنّما سنّوه بأمرِه فهو من سنتِه، ولا يكونُ في الدينِ واجباً إلّا ما أوجبَه، ولا حراماً إلّا ما حرّمَه، ولا مستحبّاً إلّا ما استحبَّه، ولا مكروهاً إلّا ما كرهه، ولا مُباحاً إلّا ما أباحه» ﷺ أ.هـ.

٣- قال الفُلّانيُّ رحمه الله في «إيقاظِ هممِ أُولي الأبصارِ» (ص ٢٣):

«وإنّما يُقالُ سنةُ النبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعُمرَ رضي اللهُ عنهما ليعْلمَ أنَّ النبيَّ ﷺ ماتَ وهو عليها.

أقولُ: وعلى هذا ينبغي أن يُحملَ حديثُ: «عليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ من بعدي» فلا يَبقى فيه إشكالٌ في العطفِ، فليسَ للخلفاءِ سنّةٌ تتبعُ إلّا ما كانَ عليه الرّسولُ ﷺ» أ.هـ.

٤- قال القاري رحمه اللهُ في «مرقاةِ المفاتيح» (١ / ١٩٩):

«فإنّهم لم يَعملوا إلّا بسنتي، فالإضافةُ إليهم إمّا لعلمِهم بها، أوْ لاستنباطِهم واختيارهم إيّاها».

٥- ووافقه العلّامةُ المباركفوريُّ رحمه اللهُ في «تحفةِ الأحوذي» (٣ / ٥٠) و (٧ / ٤٢٠) فقال:

«ليسَ المرادُ بسنةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ إلّا طريقتهم الموافقة لطريقتِه ﷺ» (ثمّ نقلَ مقالةَ القاري السابقة).

وقالَ أيضاً (٣ / ٥١).

«فإذا عرفتَ أنّه ليسَ المرادُ بسنةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ إلّا طريقتهم الموافقة لطريقته ﷺ» أ.هـ

ونقلَ (٧ / ٤٤٠ - ٤٤١) كلاماً نفيساً عن العلامةِ الشوكانيّ فقالَ:

«إنَّ أهلَ العلمِ قد أطالوا الكلامَ في هذا، وأخذوا في تأويلِه بوجوهٍ أكثرُها متعسفةٌ، والّذي ينبغي التعويلُ عليه والمصيرُ إليه هو العملُ بما يدلُّ عليه هذا التركيبُ بحسبِ ما تقتضيه لغةُ العربِ، فالسنّةُ هي الطريقةُ، فكأنَّه قالَ: الزموا طريقتي وطريقة الخلفاءِ الرّاشدينَ، وقد كانت طريقتُهم هي نفسَ طريقتِه، فإنّهم

أشدُّ الناسِ حرصاً عليها، وعملاً بها في كلِّ شيءٍ، وعلى كلِّ حالٍ كانوا يتوقونَ مخالفتَه في أصغرِ الأُمورِ فضلاً عن أكبرِها، وكانوا إذا أعوزَهم الدليلُ في كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ عملوا بما يَظهرُ لهم من الرأي بعدَ الفحصِ والبحثِ والتشاورِ والتدبيرِ.

وهذا الرأيُ عندَ عدمِ الدليلِ، هو أيضاً من سنته.

فإن قلتَ: إذا كان ما عَملوا فيه بالرأي هو من سنتِه لم يَبقَ لقولِه: «وسنة الخلفاءِ الرَّاشدينَ» ثمرة؟

قلتُ: ثمرتُه أنَّ من الناسِ من لم يُدرك زمنَه ﷺ وأدركَ زمنَ الخلفاءِ الرَّاشدينَ أو أدركَ زمنَه وزمنَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ ولكنّه حدثَ أمرٌ لم يَحدث في زمنِه ففعله الخلفاءُ، فأشارَ بهذا الإرشادِ إلى سنةِ الخلفاءِ إلى دفعِ ما عساه يترددُ في بعضِ النفوسِ من الشكِّ، ويختلجُ فيها من الظنونِ.

فأقلُّ فوائدِ الحديثِ أنَّ ما يَصدرُ عنهم من الرأي وإن كانَ من سنتِه كما تقدَّمَ، ولكنّه أولى من رأي غيرِهم عند عدمِ الدليلِ.

وبالجملةِ فكثيراً ما كانَ ﷺ ينسب الفعلَ أو التركَ إليه، أو إلى أصحابِه في حياتِه مع أنّه لا فائدةَ لنسبتِه إلى غيرِه مع نسبتِه إليه، لأنّه محلُّ القدوةِ، ومكانُ الأُسوةِ، فهذا ما ظهرَ لي في تفسيرِ هذا الحديثِ، ولم أقف عندَ تحريرِهِ على ما يوافقه من كلامِ أهلِ العلمِ[1]، فإن كانَ صواباً فمن اللهِ، وإن كانَ خطأً فمنيَ ومن الشيطانِ، واستغفرُ اللهَ العظيمَ» أ.هـ مختصراً.

ونقلَ المباركفوريُّ - رحمه اللهُ - في «تحفتِه» (٣ / ٥٠ - ٥١) كلاماً مستطاباً للعلامةِ الصنعانيِّ:

«أمّا حديثُ: «وعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الرَّاشدينَ بعدي تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذِ»، فإنّه ليسَ المرادُ بسنةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ إلّا طريقتَهم الموافقةَ لطريقتِه ﷺ من جهادِ الأعداءِ، وتقويةِ شعائرِ الدينِ، ونحوها.

---

(١) تقدَّمَ آنفاً الكثيرُ الطيبُ من أقوالِهم.

فإنَّ الحديثَ عامٌّ لكلِّ خليفةٍ راشدٍ لا يَخصُّ الشيخين، ومعلومٌ من قواعدِ الشريعةِ أنّه ليسَ لخليفةٍ راشدٍ أن يشرّعَ طريقةً غيرَ ما كانَ عليها النبيُّ ﷺ» أ.هـ.

وبالجملةِ؛ فإنَّ سنةَ الخلفاءِ الرَّاشدينَ هي فهم الصحابةِ - رضي اللهُ عنهم - للدينِ؛ لأنّهم كانوا على ما كانَ عليه نبيُّهم فهماً وتطبيقاً، وهذا ما يوضحهُ:

٢- حديثُ عبدِالله بن عمرو بنِ العاصِ - رضي اللهُ عنهما - قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

«ليأتينَّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيلَ مثلاً بمثلٍ،

حذوَ النعلِ بالنعلِ حتّى لو أنّ فيهم من نكحَ أمّه علانيةً كانَ في أُمتي من يَفعلُ مثلَه.

إنَّ بني إسرائيلَ تفرَّقوا على إحدى وسبعينَ ملّةً، وتفترقُ أُمتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملّةً كلُّها في النارِ إلّا ملةً واحدةً.

فقيلَ لَه: ما الواحدةُ؟

قالَ: «**ما أنا عليه اليومَ وأصحابي**»(١).

لقد بيّن رسولُ اللهِ ﷺ أنّ الطائفةَ المنصورةَ من اتَّصفَ بأوصافِه ﷺ وأوصافِ أصحابِه.

وحاصلُ الأمرِ أنّ أصحابَه كانوا مقتدينَ به مهتدينَ بهديه، فقد جاءَ مدحُهم في كتابِ اللهِ المجيدِ، وأثنى عليهم متبوعُهم محمد ﷺ الّذي كانَ هديه القران والسنّة.

والصحابةُ كانوا أولى النّاسِ بذلكَ، فكلُّ من اقتدى بهم فهو من الطائفةِ الناجيةِ الداخلةِ للجنّةِ بفضلِ اللهِ ورحمتِه.

وبذلكَ يَجتمعُ حديثا العرباضِ بنِ ساريةَ وعبدِالله بن عمرو بنِ العاص رضي اللهُ عنهم على تَقريرِ منهجِ الصحابةِ في الاستدلالِ والاستنباطِ، ووجه

---

(١) حسنٌ بشواهده؛ كما بينته في: «درء الارتيابِ عن حديث ما أن عليه والأصحاب» نشر دار الراية - الرياض.

ذلكَ:

أنَ من تأمَّلَ الحديثينِ وجدَهما يتحدَّثانِ عن قضيةٍ واحدةٍ، وأن مخرجَهما سواءٌ، وهو طريقُ النجاةِ، وطوقُ الحياةِ، عندما تصيرُ الأمةُ طرائقَ قِدداً، فالفهم الحقُّ هو ما كانَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه رضوانُ اللهِ عليهم، وهاكَ البيان:

١- ألم ترَ انَّ حديثَ العرباضِ بنِ ساريةَ يصرّحُ أنَّ «من يَعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً وإيّاكم ومحدثاتِ الأمورِ فإنّها ضلالةٌ».

فنبئني بعلمٍ أخا الإسلامِ أليسَ الاختلافُ الكثيرُ الواردُ في حديثِ العرباضِ بنِ ساريةَ هو تعدد الفرقِ حتّى بلغَت بضعاً وسبعينَ فرقةً كلُّها على سبيلِ ضلالةٍ وطريقِ بدعةٍ إلّا واحدةً على المحجّةِ البيضاءِ الَّتي لا يَزيغُ عنها إلّا هالكٌ، ولا يتنكبُها إلّا ضالٌّ، وتلكم المحجّةُ واضحةُ المعالمِ والحجّةِ وهي:

٢- قولُه ﷺ: «ما أنا عليه اليومَ وأصحابي».

الَّذي يَعني قوله الآخر: «فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ»؟

لأنَّ ما كانَ عليه رسولُ اللهِ ﷺ هو سنتَه المُطهرةَ، وما كانَ عليه أصحابُه هو سنّتُه الَّتي هي سنةُ الخلفاءِ الرَّاشدين المهديينِ والعلماءِ العاملينَ الَّذينَ اتبعوهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ.

٣- ولست بدعاً في هذا التوجيه والاستدلالِ؛ فقد سَبقني أئمةٌ أشاروا إلى ذلكَ لكنَّها ومضةٌ استوعبتُها وشرحتها ودعمتها بالأدلةِ لتستبينَ سبيلَ المؤمنين.

فها هو الحافظُ ابنُ حبّانَ رحمه اللهُ يَروي حديث العرباضِ بنِ ساريةَ رضي اللهُ عنه في «صحيحه» (١ / ١٠٤) تحتَ باب: ذكرُ وصفِ الفرقةِ الناجيةِ من بينِ الفرقِ الَّتي تفترقُ عليها أمّةُ المصطفى ﷺ.

ثمَّ يَقولُ بعده: «في قولِه ﷺ: «فعليكم بسنتي» - عند ذكرِه الاختلاف الَّذي يَكونُ في أُمتِه - بيانٌ واضحٌ أنَّ من واظبَ على السننِ، قالَ بها، ولم يُعَرِّج على غيرِها من الآراءِ من الفرقةِ الناجيةِ في القيامةِ، جعلنا اللهُ منهم بمنّه».

من هذه النقولِ عن هؤلاءِ الأئمةِ الفحولِ يتمخضُ الحديثُ عن معنى

صوابٍ، ورأيٍ لبابٍ، وهو:

إنَّ المخرجَ من مُضلّاتِ الهوى، وسبيلَ النجاةِ من مُعضلاتِ الشبهاتِ والشهواتِ - التي تجتالُ من اتبعها عن المحجّةِ البيضاءِ - ما كانَ عليه الصحابةُ رضي اللهُ عنهم من فهمٍ لسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فإنّهم أخذوا منها بحظٍّ وافرٍ، وحازوا قصباتِ السباقِ، واستولوا على الأمدِ، فلا مَطمعَ لأحدٍ من الأمةِ بعدَهم في اللّحاقِ بهم؛ فإنّهم على هدىً وقفوا، وبعلمٍ قد كفوا، وببصرٍ نافذٍ نظروا، والسعيدُ من اتّبعَ صراطهم السويَّ، والشقيُّ من زاغَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ وسلكَ سُبلَ الغيِّ، التائه الحائرِ في ميدانِ المهالكِ والضلالِ، يَظنُّ سرابَ الأهواءِ ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجدَ الشيطانَ عندَه؛ فاستحوذَ عليه، نعوذُ باللهِ من الخذلانِ.

فقل لي بربّكَ: أيُّ خصلةِ خيرٍ لم يَسبقوا إليها؟ وأيُّ خطةِ رُشدٍ لم يستولوا عليها؟

والّذي نفسي بيدِه لقد نهلوا الحقَّ من معينِه عذباً زُلالاً، فأيّدوا قواعدَ الإسلامِ فلم يتركوا لأحدٍ مَقالاً، وألقوا إلى التابعينَ بإحسانٍ ما وَرِثوه من مشكاةِ النبوّةِ خالصاً صافياً، وكانَ سندُهم فيه نبيَّهم ﷺ عن جبريلَ عن ربِّ العزّةِ سنداً عالياً.

لقد كانت سنةُ رسولِ اللهِ ﷺ أجلَّ في صدورِهم، وأعظمَ في نفوسِهم أن يُقدّموا عليها هوىً أو أن يَخلطوها برأيٍ مشوبٍ، كيفَ وقد عادوا ووالوا عليها؟

فإذا دعاهم رسولُ اللهِ ﷺ إلى أمرٍ طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا، وحملوا أنفسَهم عليه فلا يَسألوه عمّا قالَ بُرهاناً، لذلكَ فهم أولى الناسِ بسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ فهماً وتطبيقاً واستدلالاً واستنباطاً، يحكمُهم في ذلكَ منهجٌ علميٌّ دقيقٌ، عصمهم من اتباعِ بنيّاتِ الطريقِ، ولذلكَ جاءَت النصوصُ في الكتابِ والسنّةِ على وصفِ طريقتِهم بكلِّ مقوماتِ المنهجِ العلميِّ ولوازمِه.

أ- وصفه اللهُ بـ «السبيلِ»، وهو الطريقُ واضحُ المعالمِ؛ كما في قولِه تعالى: **﴿ومن يُشاقق الرّسولَ مِن بعدِ ما تبيَّنَ له الهدى ويتبع غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نولّه ما تولّى ونُصله جهنَّم وساءت مَصيراً﴾** [النساء: ١١٥].

ب- وصفه رسولُ اللهِ ﷺ بـ « السنّةِ »، وهي الطريقةُ المتبوعةُ المسلوكةُ؛ كما

في حديثِ العرباضِ بنِ سارية المتقدّم.

ت- حصرَ رسولُ اللهِ ﷺ الفرقةَ الناجيةَ والطائفةَ المنصورةَ في التمسكِ بما كانَ عليه وأصحابُه، فلو لم يَكن ذلكَ منهجاً واضحَ المعالمِ فكيفَ يُمكنُ التمسكُ به؟! لأنَّه حينئذٍ سيختلطُ بغيرِه اختلاطاً لا يُمكنُ أن يتميّزَ به عنه.

وتدّبر قولَه تعالى: ﴿فإن آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقَد اهتدوا﴾ [البقرة: ١٣٧]

وتأمّل قولَ رسولِ اللهِ ﷺ: «إنَّ من ورائِكم أيّامُ صبرٍ، للمتمسكِ فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه أجرُ خمسينَ منكم»(٢).

تَجدُ أنَّ ذلكَ لا يَكونُ إلّا لمنهجٍ علميٍّ نقيٍّ؛ ليله كنهارِه، لا يَزيغُ عنه إلّا هالكٌ، ولا يتنكّبُه إلّا ضالٌّ، ولا يَشكُّ فيه إلّا مرتابٌ.

وقد زَعمَ من لم يُقدِّر السلفَ حقَّ قدرهم ولم يَعرفْ مقدارهم: أنَّ السَّلفَ نَصِّيونَ؛ يَعتمدونَ على ظواهرِ النصوصِ، ولا يُعمِلونَ العقلَ في شيءٍ من ذلكَ، وبالتالي فهم يسلِّمونَ للنصوصِ تسليماً دونَ فهمٍ لما دلّت عليه، ويُفوضونَ معانيَها إلى اللهِ تعالى دونَ علمٍ، وأنَّهم اشتغلوا بما يَرونَه أنفعَ وأجدى من الطاعاتِ والعباداتِ.

إنَّ محاولةَ تَفليس السَّلفِ من المنهجِ العلميِّ الدقيقِ -الَّذي ينبغي أن يُحتَكمَ إليه في فهمِ نصوصِ الكتابِ والسنّةِ، ويعتصمَ به عند الاختلافِ والفرقةِ- تَقومُ على وهمينِ لا زمامَ لهما ولا خطامَ، وإن تناقلَهما وتواطأَ عليهما أهلُ الكلامِ:

□ **الأولُ- قولُهم مذهبُ السلفِ أسلمُ؛ لكن مذهبَ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ.**

ودونَكَ تفنيدُ هذه المقالةِ الَّتي هي في غايةِ الضلالةِ، حيثُ تُريدُ أن تنقضَ من وُجوهٍ:

١- لقد فرَّقَ الخلفُ بينَ السلامةِ والعلمِ والحكمةِ، وهل العلمُ والحكمةُ إلّا أُسُّ السلامةِ الَّتي تَسيرُ في ركابِ العلمِ وتجرُّ أذيالها وراءَ الحكمةِ؟

فكيفَ تُجيزُ العُقولُ التفريقَ بينَ السَّببِ ونتيجتِه؟ إنَّ هذا لشيءٌ مُحالٌ.

---

(٢) **حسن بشواهده**؛ كما بينته في: «درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه والأصحاب» (ص ١٥).

٢- كيفَ يَكونُ الخالفونَ أعلمَ باللهِ ورسولِه من خيرِ النَّاسِ، وهل الخيريّةُ إلّا في العلمِ والحكمةِ.

٣- أيُّ علم وحكمةٍ في مذهبٍ تبرّأَ منه رؤوسُه، وأعلنَ أقطابُه خطأَه وزيفَه، وأقرّوا على أنفسِهم بالحيرةِ في أمرِهم، والندمِ على ما أقدموا عليه وقدَّموه في حقِّ اللهِ ورسولِه وسلفِ الأمةِ.

وقد أوعبَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ في «العقيدةِ الحمويّةِ» (١ / ٤٢٨) فأشبعَ وأروى قائلاً:

«كيفَ يَكونُ هؤلاءِ المتأخرونَ لا سيّما والإشارةُ بالخلفِ إلى ضربٍ من المُتكلّمينَ الَّذينَ كثرُ في بابِ الدينِ اضطرابُهم، وغلظَ عن معرفةِ اللهِ حجابُهم، وأخبرَ الواقفُ على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه من مرامِهم حيثُ يَقولُ:

لعمري لقد طُفت المعاهدَ كلَّها
وسيّرتُ طرفي بينَ تلكَ المعالمِ
فلم أرَ إلّا واضعاً كفَّ حائرٍ
على ذقنٍ أو قارعاً سِنَّ نادمِ

واقرُّوا على أنفسِهم بما قالوا متمثلينَ به، أو منشئينَ له فيما صنَّفوه من كتبِهم، مثل قولِ بعضِ رؤسائهم:

نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ
وأكثرُ سعي العالمينَ ضلالُ
وأرواحنُا في وحشةٍ في جسومنا
وحاصلُ دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثِنا طولَ عمرِنا
سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا[1]

---

(١) هذه الأبياتُ لابنِ الخطيبِ المعروف بالفخرِ الرّازي، وقد رواها الشاطبيُّ في «الإفاداتِ والانشاداتِ» (ص ٨٤ - ٨٥) بإسنادِه.
=

ويقولُ الآخرُ منهم: لقد خُضت البحرَ الخضمَّ، وتركتُ أهلَ الإسلامِ وعلومَهم، وخُضت في الَّذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربِّي برحمتِه فالويلُ لفلانٍ، وها أنا ذا أموتُ على عقيدةِ أُمي(١).

ويقولُ الآخرُ منهم: أكثرُ النَّاسِ شكّاً عندَ الموتِ أصحابُ الكلامِ.

ثمَّ إذا حقق عليهم الأمرُ لم يُوجد عندَهم من حقيقةِ العلمِ باللهِ وخالصِ المعرفةِ به خبرٌ، ولا وَقعوا من ذلكَ على عينٍ ولا أثر، كيفَ يَكونُ هؤلاءِ المنقوصونَ المحجوبونَ المفضولونَ المسبوقون الحيارى المتهوكونَ أعلمَ باللهِ وآياتِه من السابقينَ الأوّلينَ من المهاجرينَ والأنصار والَّذينَ اتبعوهم بإحسانٍ من ورثةِ الأنبياءِ، وَخُلفاءِ الرُّسلِ، وأعلامِ الهدى، ومصابيحِ الدجى، الَّذينَ بهم قامَ الكتابُ وبه قاموا، وبهم نَطقَ الكتابُ وبه نَطقوا، الَّذينَ وهَبَهم اللهُ من العلمِ والحكمةِ ما بَرَزوا به على سائرِ أتباعِ الأنبياءِ، وأحاطوا من حقائقِ المعارفِ وبواطنِ الحقائقِ بما لو جُمعت حكمةُ غيرِهم إليها لاستحيى من يطلبُ المقابلةَ، ثمَّ كيفَ يَكونُ خيرُ قُرونِ الأُمةِ انقصَ في العلمِ والحكمةِ - لا سيَّما العلم باللهِ وأحكام أسمائه وآياتِه - من هؤلاءِ الأصاغرِ بالنسبةِ إليهم، أم يَكونُ أفراخُ المتفلسفةِ وأتباعُ الهندِ واليونانِ أعلمَ باللهِ من ورثةِ الأنبياءِ وأهلِ القرآنِ والإيمانِ». أ.هـ

وقالَ العالمُ الرَّبانيُّ محمد بنُ عليّ الشوكانيُّ في «التحف في مذاهبِ السَّلفِ» (ص ٤١ - ٤٤):

«ولكن زَعموا أنَّ طريقةَ الخلفِ أعلمُ، فكانَ غايةُ ما ظَفروا به من هذه الأعلميّةِ لطريق الخلفِ أن تمنَّى محققوهم وأذكياؤهم في آخرِ أمرِهم دينَ العجائزِ، وقالوا: هَنيئاً للعامةِ.

فتدبَّر هذه الأعلميّةَ الَّتي حاصلُها أن يهنِّئ مَن ظفر بها للجاهلِ؛ لأهلِ الجهل البسيط، ويتمنى أنّه في عدادِهم وممّن يدينُ بدينهم، ويمشي على طريقِهم، فإنَّ هذا

= وهي في «نفح الطيب» للمقري (٥ / ٢٣٢) و «الإحاطة في أخبارِ غرناطةَ» للسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ (٢ / ٢٢٢) بإسنادٍ آخرَ.

(١) هذه الكلماتُ لابن الجُوزي كما في «المنتظم» (٩ / ١٩)، و «سير أعلام النبلاءِ» (١٨ / ٤٧١) و «طبقات الشافعيّة» (٣ / ٢٦٠)، و «شذرات الذهب» (٣ / ٣٦١).

ينادي بأعلى صوتٍ، ويدلُّ بأوضحِ دلالةٍ على أنَّ هذه الأعلميّةَ الَّتي طَلَبوها؛ الجهلُ خيرٌ منها بكثيرٍ، فما ظنُّكَ بعلمٍ يُقرُّ صاحبُه على نفسِه أنَّ الجهلَ خيرٌ منه، ويتمنى عندَ البُلوغِ إلى غايتِه والوُصولِ إلى نهايتِه أن يَكونَ جاهلاً به عاطلاً عنه.

ففي هذا عبرةٌ للمعتبرينَ، وآيةٌ بينةٌ للناظرينَ، فهلّا عملوا على جهلِ هذه المعارفِ الّتي دخلوا فيها باديَ بدءٍ وَسَلِموا من تبعاتِها، وأراحوا أنفسَهم من تعبِها، وقالوا كما قالَ القائلُ:

أرى الأمرَ إلى آخرٍ   يصيرُ آخره أوَّلاً

ورَبحوا الخَلوصَ من هذا التمني والسلامةَ من هذه التهنئةِ للعامةِ، فإنَّ العاقلَ لا يتمنّى رتبةً مثلَ رتبتِه أو دونَها ولا يُهَنِّئ لمن هو دونَه أو مثله، ولا يَكون ذلكَ إلّا لمن رتبتُه ارفعُ من رتبته، ومكانه أعلى من مكانِه.

فياللهِ العجب من علمٍ يَكونُ الجهلُ البسيطُ أعلى رتبةً منه، وأفضلَ مقداراً بالنسبةِ إليه، وهل سمعَ السامعونَ مثلَ هذه الغريبةِ أو نَقلَ الناقلونَ ما يُماثلُها أو يشابهها؟!

وإذا كانَ حالُ هذه الطائفة الَّتي قد عرفناكَ أخفَّ هذه الطوائفِ تكلّفاً، وأقلَّها تبعةً، فما ظنُّكَ بما عداها من الطوائفِ الَّتي قد ظهرَ فسادُ مقاصدِها، وتبيّنَ بُطلانُ مواردِها ومصادرِها، كالطوائفِ الّتي أرادت بالمظاهرِ الَّتي تظاهرت به إكبار الإسلام وأهله، والسَّعيَ في التشكيكِ فيه بإيرادِ الشُّبه، وتقريرِ الأمورِ المفضية إلى القدحِ في الدينِ، وتنفيرِ أهلِه عنه.

وعند هذا تعلمُ أنَّ:

خيرَ الأمورِ السَّالفات على الهدى
وشرَّ الأمورِ المحدثاتُ البدائعُ» أ.هـ

٤- هذه المقالةُ جهلٌ مركبٌ حيثُ جهِلَ الخَلَفُ مذهبَ السَّلفِ، وجهلوا أنّهم يَجهلونَ؛ فظنّوا أنّهم على شيءٍ، وليس كذلكَ.

قالَ العلّامةُ السفارينيُّ - رحمه اللهُ - في «لوامع الأنوارِ البهيّة» (١ / ٢٥):

«فمن المُحالِ أن يَكونَ الخالفونَ أعلمَ من السالفينَ كما يَقولُ بعضُ من لا

تَحقيقَ لديه ممن لا يُقدِّرُ السلفَ، ولا عرفَ اللهَ تعالى ورسولَه ولا المؤمنينَ به حقَّ المعرفةِ المأمورِ بها؛ من أنَّ طريقةَ السَّلفِ أسلمُ، وطريقةَ الخلفِ أعلمُ وأحكمُ.

وهؤلاءِ إنَّما أُتوا من حيثُ ظنّوا أنَّ طريقَ السلفِ هي مجرّدُ الإيمانِ بألفاظِ القرآنِ والحديثِ من غيرِ فقهٍ؛ ذلك بمنزلةِ الأميينَ.

وأنَّ طريقَ الخَلَفِ هي استخراجُ معاني النصوصِ المصروفةِ عن حقائقِها بأنواعِ المجازاتِ وغرائبِ اللغاتِ، فهذا الظنُّ الفاسدُ أوجبَ تلكَ المقالةَ الَّتي مضمونها نبذُ الإسلامِ وراء الظهورِ.

وقد كذبوا وأفكوا على طريقةِ السلفِ، وضلّوا في تصويبِ طريقةِ الخلفِ، فجمعوا بينَ باطلينَ:

الجهل بطريقةِ السَّلفِ والكذبِ عليهم، والجهل والضلال بتصويبِ طريقةِ غيرِهم» أ.هـ.

يوضحه:

الثّاني: حُجَجُ القرآن أم منطق اليونان:

قالَ ابنُ قيمِ الجوزيّةِ - رحمه اللهِ - في «مفتاح دارِ السعادةِ» (١ / ١٤٥ - ١٤٦):

«وقد يَقعُ في وهم كَثيرٍ من الجهالِ أنَّ الشريعةَ لا احتجاجَ فيها، وأنَّ المرسلَ بها صلواتُ اللهِ وسلامه عليه لم يكن يحتجُّ على خصومِه ولا يُجادلُهم.

ويظنُّ جهالُ المنطقيينَ وفُروخُ اليونانِ أنَّ الشريعةَ خطابٌ للجمهورِ ولا احتجاجَ فيها، وأنَّ الأنبياءَ دعوا الجمهورَ بطريقةِ الخطابةِ، والحججُ للخواصِّ وهم أهلُ البرهانِ، يَعنونَ أنفسَهم ومن سلكَ طريقَهم.

وكلُّ هذا من جهلهم بالشريعةِ والقرآنِ؛ فإنَّ القرآنَ مملوءٌ من الحججِ والأدلةِ والبراهينِ في مسائلِ التوحيدِ وإثباتِ الصانعِ والمعادِ، وإرسالِ الرُّسلِ، وحدوثِ العالمِ، فلا يذكرُ المتكلمونَ وغيرُهم دليلاً صحيحاً على ذلكَ إلّا وهو في القرآنِ بأفصحِ عبارةٍ، وأوضحِ بيانٍ، وأتمّ معنى، وأبعده عن الإيراداتِ والأسئلةِ.

وقد اعترفَ بهذا حذّاقُ المتكلمين من المتقدمين والمتأخرينَ.

قالَ أبو حامدٍ في أوّلِ «الإحياءِ»:

فإنَّ قلت: فَلِمَ لَمْ تورد في أقسامِ العلمِ الكلامَ والفلسفةَ وتبيِّنْ أنّهما مذمومانِ أو محمودانِ؟!

فاعلم أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليه الكلامُ في الأدلةِ الَّتي ينتفعُ بها فالقرآنُ والأخبارُ مشتملةٌ عليه، وما خرجَ عنها فهو إمّا مجادلةٌ مذمومةٌ وهي من البدعِ، وإمّا مشاغبةٌ بالتعلّقِ بمناقضاتِ الفرقِ وتطويلٍ بنقلِ المقالاتِ الَّتي أكثرها تُرهاتٌ وهذياناتٌ تزدريها الطباعُ، وتمجُّها الأسماعُ، وبعضُها خوضٌ فيما لا يتعلّقُ بالدينِ، ولم يكن شيءٌ منه مأثوراً في العصرِ الأولِ، ولكن تغيَّرَ الآنَ حكمُه إذا حدثت البدعُ الصارفةُ عن مقتضى القرآنِ والسنّةِ، لفقت لها شُبهاً، ورتبت لها كلاماً مؤلفاً؛ فصارَ ذلكَ المحظورُ بحكمِ الضرورةِ مأذوناً فيه.

وقالَ الرازي في كتابه «أقسام اللذاتِ»:

لقد تأملت الكتبَ الكلاميّةَ، والمناهجَ الفلسفيّةَ، فما رأيتُها تروي غَليلاً، ولا تَشفي عليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرقِ طريقَ القرآنِ، أقرأُ في الإثباتِ ﴿إليه يَصعدُ الكَلِمُ الطيّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿الرّحمن على العرشِ استوى﴾ [طه: ٥]، وأقرأُ في النفي ﴿ليسَ كمثلِه شيءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومن جرَّبَ مثلَ تجربتي عرفَ مثلَ معرفتي.

وهذا الَّذي أشارَ إليه بحسبِ ما فتحَ له من دلالةِ القرآنِ بطريقِ الخبرِ، وإلّا فدلالتُه البرهانيّةُ العقليّةُ الّتي يُشيرُ إليها، ويُرشدُ إليها، فتكونُ دليلاً سمعيّاً وعقليّاً أمرٌ تميّزَ به القرآنُ، وصارَ العالمُ به من الرّاسخينَ في العلمِ، وهو العلمُ الّذي يَطمئنُّ إليه القلبُ، وتسكنُ عندَه النفسُ، ويَزكو به العقلُ، وتستنيرُ به البصيرةُ، وتقوى به الحجّةُ، ولا سَبيلَ لأحدٍ من العالمينَ إلى قطعِ من حاجَّ به، بل من خاصمَ به فَلَجَت حجّتُه وكسرَ شبهةَ خصمِه، وبه فُتحت القلوبُ، واستُجيبَ للهِ والرسولِ، ولكنَّ أهلَ هذا العلمِ لا تكادُ الأعصارُ تَسْمَحُ منهم إلّا بالواحدِ بعدَ الواحدِ، فدلالةُ القرآنِ عقليّةٌ قطعيّةٌ يَقينيّةٌ لا تعترضُها الشبهاتُ، ولا تتداولُها الاحتمالاتُ، ولا

يَنصرفُ القلبُ عنها بعدَ فهمِها أبداً.

وقالَ بعضُ المتكلمينَ:

أفنيتُ عمري في الكلامِ أطلبُ الدليلَ، وأنا لا أزدادُ إلّا بعداً من الدليلِ، فرجعتُ إلى القرآنِ أتدبرُه وأتفكرُ فيه، وإذا أنا بالدليلِ حقّاً معي، وأنا لا أشعرُ به، فقلتُ: والله ما مثلي إلّا كما قالَ القائلُ:

ومن العجائبِ والعجائبُ جَمَّةٌ
قربُ الحبيبِ وما إليه وصولُ
كالعيسِ في البيداءِ يَقتلُها الظما
والماءُ فوقَ ظُهورِها محمولُ

قالَ: فلمّا رجعتُ إلى القرآنِ إذ هو الحكمُ والدليلُ، ورأيتُ فيه من أدلّةِ اللهِ وحججهِ وبراهينِه وبيناتِهِ ما لو جُمع كلُّ حقٍّ قالَه المتكلمونَ في كتبِهم لكانت سورةٌ من سورِ القرآنِ وافيةٌ بمضمونِه مع حسنِ البيانِ، وفصاحةِ اللّفظِ، وتطبيقِ المفصلِ، وحسنِ الاحترازِ، والتنبيهِ على مواقعِ الشبهِ، والإرشادِ إلى جوابِها، وإذا هو كما قيلَ بل فوقَ ما قيلَ:

كَفى وشفى ما في الفؤادِ فلم يَدع
لذي أربٍ في القولِ جدّاً ولا هزلاً

وجعلت جيوشُ الكلامِ بعدَ ذلكَ تفدُ إليّ كما كانت، وتتزاحمُ في صدري، ولا يأذنُ لها القلبُ بالدخولِ فيه، ولا تلقى منه إقبالاً ولا قَبولاً، فترجعُ على أدبارِها.

والمقصودُ: أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاجِ، وفيه جَميعُ أنواعِ الأدلةِ والأقيسةِ الصحيحةِ.

وأمر اللهُ رسولَه ﷺ بإقامةِ الحجّةِ والمجادلةِ، فقالَ تعالى: ﴿**وجادِلهم بالّتي هي أحسنُ**﴾ [النحلُ: ١٢٥]، وقالَ ﴿**ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالتي هي أحسنُ**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذه مناظراتُ القرآنِ مع الكفارِ موجودةٌ فيه، وهذه مناظرةُ رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابه لخصومِهم وإقامة الحججِ عليهم، لا يُنكرُ ذلكَ إلّا جاهلٌ مفرطٌ في الجهلِ[1]» أ.هـ

□□□□□

---

(١) ومن رام الزيادة والوقوف على منهج السلف في المناظرة، فعليه بكتابي: «مناظرات السلف مع حزب إبليس وأفراخ الخلف دراسةً وتحليلاً» نشر دار ابن الجوزي - الدمام.

لماذا المنهجُ السَّلفِيُّ فَقط؟

وقد تضافرت الأدلةُ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ وأقوالِ الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم على مدحِ من اتبعَ سبيلَ السَّلَفِ وذمّ من لم يَفعل ذلكَ، وهذه أُمورٌ تؤكدُ وُجوبَ ذلكَ، وأَنَّه طريقُ النجاةِ وطوقُ الحياةِ.

وها نحنُ نرشقُ شكَّ المتريّبِ ببضعة عشرَ سهماً؛ لتنداحَ سبيل المؤمنينَ عن شجرةِ اليقينِ، فنجني من أعلاها المغدقِ حلاوةَ الإيمانِ، ونتقلَّبَ تحتَ أسفلها المورقِ في أفوافِ روح وريحان.

□ **الأوّلُ** - قالَ تعالى: ﴿**والسابقونَ الأولونَ من المهاجرينَ والأنصار والّذينَ اتبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنّاتٍ تجري تحتَها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً ذلكَ الفوزُ العظيمُ**﴾ [التوبةُ: ١٠٠].

وجه الدلالةِ: أنَّ ربّ البريةِ أثنى على من اتبعَ خيرَ البريّة، فعُلِمَ أَنّهم إذا قالوا قولاً فاتبعَهم متبعٌ، فيجبُ أن يَكونَ محموداً، وأن يستحقَّ الرضوانَ، ولو كانَ اتباعهم لا يتميزُ عن غيرِهم لا يستحقُّ الثناءَ والرضوان.

□ **الثاني** - قالَ جلَّ ثناؤه: ﴿**كنتم خيرَ أُمّةٍ أُخرجت للنّاسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكرِ وتُؤمنونَ باللهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد أثبَت اللهُ لهم الأفضليّةَ على سائرِ الأمم، وذلكَ يَقتضي استقامتُهم على كلِّ حالٍ؛ لأنّهم لنِ يَزيغوا عن البيضاءِ، فقد شهدَ اللهُ لهم أنّهم يأمرونَ بكلِّ معروفٍ، وينهونَ عن كلِّ منكرٍ، وذلكَ يستلزمُ أنَّ فهمَهم حجةٌ على من بعدِهم حتّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

فإن قيلَ: هذا عامٌّ في الأمةِ لا يَختصُّ بجيلِ الصحابةِ دونَ من بعدَهم.

قلتُ: هم المخاطبونَ ابتداءً، ولا يدخلُ من تبعهم بإحسانٍ إلّا بقياسٍ، أوبدليلٍ كما هو في الدليلِ الأوّلِ.

وعلى تسليم العموم - وهو الصوابُ - فإنّ الصحابةَ أوّلُ داخلٍ في شُمولِ

الخطابِ، فأنّهم أوّلُ من تَلقى عن رسولِ اللهِ ﷺ بدونِ واسطةٍ، وهم المباشرونَ للوحي.

وهم أولى بالدخولِ من غيرِهم إذ الأوصافُ الّتي وصفَهم اللهُ بها لم يتصف بها على وجه الكمالِ إلّا هم، فمطابَقةُ الوصفِ لواقعِ الحالِ شاهدٌ على أنّهم أحقُّ من غيرِهم بالمدحِ يُوضحه:

□ **الثالثُ** - قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«خيرُ النّاسِ[1] قرني ، ثمّ الّذينَ يَلونَهم، ثمّ الّذينَ يَلونَهم، ثمّ يَجيءُ قومٌ تسبقُ شهادةُ أحدِهم يمينه، ويمينُه شهادتَه»[2].

هل الخيريّةُ المُثبتةُ لجيلِ الصحابةِ في ألوانِهم أو أجسامِهم أو أموالِهم... إلخ؟

لا يشكُّ عاقلٌ فَقِه الكتابَ والسنّةَ أنَّ شيئاً من ذلكَ غيرُ مقصودٍ؛ لأنَّ الخيريّةَ في الإسلام مقياسُها تقوى القُلوبِ والعملُ الصالحُ، قالَ تعالى: ﴿ إنَّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]

وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَنظرُ إلى صورِكم وأموالِكم ولكن يَنظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم»[3]

ولقد نَظرَ اللهُ إلى قُلوبِ صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فوجدها خيرَ قلوبِ العبادِ بعدَ قلب محمدٍ ﷺ، فآتاهم فهماً لا يُدركه اللّاحقون، ولذلكَ فما رآه الصحابةُ حسناً فهو عند الله حسنٌ، وما رآه الصحابةُ سيّئاً فهو عندَ اللهِ سَيّئٌ.

قالَ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه:

«إنَّ اللهَ نَظرَ إلى قلوبِ العبادِ؛ فوجدَ قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قُلوبِ العبادِ فاصطفاه لنفسِه، فابتعثَه برسالتِه، ثمّ نَظرَ في قُلوبِ العبادِ بعدَ قلبِ محمدٍ، فوجدَ

---

(١) شاعَ في كثيرٍ من الكتبِ هذا الحديثُ بلفظ: «خير القرونِ».
قلتُ: وهذا اللفظُ غيرُ محفوظٍ، والصوابُ ما أثبته.

(٢) كبير؛ كما نصَّ على ذلكَ الحافظُ ابن حجر في «الإصابة» (١ / ١٢)، والمُناويُّ في «فيض القدير» (٣ / ٤٧٨)، وأقرّهم الكتانيُّ في «نظم المُتناثر» (ص ١٢٧).

(٣) أخرجه مسلمٌ (١٦ / ١٢١ - نووي).

قلوبَ أصحابِه خيرَ قُلوبِ العبادِ فجعلَهم وزراءَ نبيّه، يُقاتلونَ على دينِه، فما رآه المسلمونَ حسناً فهو عندَ اللهِ حسنٌ، وما رأوه سيّئاً فهو عندَ اللهِ سيئٌ»(١).

وعن أبي جُحيفةَ قالَ: قلتُ لعليّ: هل عندكم كتابٌ؟

قالَ: «لا إلّا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجلٌ مسلمٌ، أو ما في هذه الصحيفةِ»(٢).

قلتُ: فما في هذه الصحيفةِ؟

قالَ: «العقل، وفكاكُ الأسير، ولا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ»(٣).

وبذلكَ يَكونُ فهمُ الصحابةِ للكتابِ والسنّةِ حجّةً على من بعدَهم إلى آخرِ هذه الأمةِ، ولذلكَ فهم شهداءُ اللهِ في الأرضِ، يوضحه:

□ **الرَّابع** - قالَ تعالى: **﴿وكذلكَ جعلناكم أُمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرَّسولُ عليكم شهيداً﴾** [البقرة: ١٤٣].

لقد جعلَهم المولى عزَّ وجلَّ خياراً عدولاً، فهم أفضلُ الأمم، وأعدلُها في أقوالِهم وأفعالِهم وإراداتِهم، ولذلكَ استحقّوا أن يَكونوا شهداءَ على النّاسِ، فلهذا نوّه بهم، ورفعَ ذكرَهم، وأثنى عليهم، وتقبلهم بقَبولٍ حسنٍ.

والشاهدُ المقبولُ عندَ اللهِ هو الّذي يشهدُ بعلمٍ وصدقٍ، فيخبرُ بالحقِّ مستنداً إلى علمِه؛ كما قالَ تعالى: **﴿إلّا من شهدَ بالحقِّ وهم يَعلمونَ﴾** [الزخرف: ٨٦].

---

(١) أخرجه أحمدُ (١ / ٣٧٩)، والطيالسيُّ في «مسندِه» (ص ٢٣)، والخطيبُ البغداديُّ في «الفقيه والمتفقّه» (١ / ١٦٦) موقوفاً بإسنادٍ حسنٍ.

وقد اشتهرت الجملةُ الأخيرةُ منه بأنّها مرفوعةٌ، ولا يَصحُّ ذلكَ كما نصَّ على ذلكَ أئمةُ الصنعةِ، وإنّما هي من قولِ ابنِ مسعودٍ، كما بينته في رسالتي: «البدعة وأثرها السّيئ في الأمةِ» (ص ٢١ - ٢٢) فلتُنظر.

(٢) هذا النصُّ الصريحُ من أميرِ المؤمنينَ علي بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه يدمغُ باطلَ الشيعةِ الرّوافضِ الّذينَ انتسبوا إلى آل البيتِ النبويّ ظلماً وتدليساً، حيثُ زعموا أنَّ لدى العترةِ كتاباً يُعادلُ القرآنَ الّذي بينَ أيدينا ثلاثَ مرّات وسمّوه «مصحف فاطمة».

وانظر «بغية المُرتاد» لشيخ الإسلامِ ابن تيميّةَ (ص ٣٢١ - ٣٢٢)؛ ففيه كلامٌ نَفيسٌ.

(٣) أخرجه البخاريُّ (١ / ٢٠٤ - الفتح)

فإذا كانت شهادتُهم مقبولةً عندَ اللهِ فَلا ريبَ أنّ فهمَهم للدينِ حُجّةٌ على من بعدهم؛ لأنَّ هذه الآية أثبتت الدلالة مطلقاً.

والأمةُ لم تعدّل جيلاً مطلقاً إلّا جيلَ الصّحابةِ، فإنَّ أهلَ السنةِ والجماعةِ عدَّلُوهم على الإطلاقِ والعمومِ، فأخذوا عنهم روايةً ودرايةً من غيرِ استثناءٍ ولا محاشاةٍ، بخلافِ غيرِهم فلم يعدّلوا إلّا من صحت إمامته، وثبتت عدالتُه، وهما لا يمنحانِ لإنسانٍ إلّا إذا سارَ على قدمِ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم.

فثبتَ بهذا أنَّ فهمَ الصحابةِ حجّةٌ على غيرِهم في توجيه نصوصِ الكتابِ والسنّةِ، ولذلكَ أمَرَ باتباعِ سبيلِهم، يوضحه:

□ **الخامس** – قالَ تعالى: ﴿**واتبع سبيلَ من أنابَ إليَّ**﴾ [لقمان: ١٥].

وكلٌّ من الصحابةِ – رضي اللهُ عنهم – منيبٌ إلى اللهِ، فهداهم اللهُ إلى الطيّبِ من القولِ، والصالحِ من العملِ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿**والَّذينَ اجتَنَبوا الطاغوتَ أن يَعبدوها وأنابوا إلى اللهِ لهم البشرى فبشر عباد الَّذينَ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنَه أُولئكَ هم أُولو الألبابِ**﴾ [الزمر ١٧ –١٨].

فوجبَ اتباعُ سبيلِهم في الفهمِ لدينِ اللهِ كتاباً وسنّةً، ولذلكَ هددَ اللهُ من اتبعَ غيرَ سبيلِهم بجهنَّمَ وبئسَ المصير، يوضحه:

□ **السادس** – قالَ تعالى: ﴿**ومن يُشاققِ الرّسولَ من بعدِ ما تبيّنَ له الهُدى ويتبع غيرَ سبيلِ المؤمنينَ نولّه ما تولّى ونُصله جهنَّم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: ١١٥].

ووجه الدلالةِ: أنَّ اللهَ توعدَ من اتبعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ، فدلَّ على أنَّ اتباعَ سبيلِهم في فهمِ شرعِ اللهِ واجبٌ، ومخالفتَه ضلالٌ.

فإن قيلَ: هذا استدلالٌ بدليلِ الخطابِ، وليسَ حجّةً.

قلتُ: هو دليلٌ، ودونَكَ الدليلُ.

أ- عن يَعلى بنِ أُميّة قالَ: قلتُ لعمر بنِ الخطابِ: ﴿**فليسَ علَيكم جُناحٌ أن تقصروا من الصلاةِ إنِ خِفتم أن يفتنَكم الَّذينَ كفروا**﴾ [النساء: ١٠١]، فقد أمن النّاسُ؟

قالَ عمر: عَجبتُ مما عَجبت فسألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلكَ فقالَ: «صدقة تصدَّقَ اللهُ بها عليكم فاقبلوا صدقته»[١].

لقد فهمَ الصحابيّانِ يعلى بنُ أُميةَ[٢]، وعمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنهما من هذه الآيةِ أنَّ قَصْرَ الصلاةِ مقيدٌ بشرطِ الخوفِ؛ فإذا أمنَ النّاسُ فلا بدَّ من الإتمامِ، وهذا هو دليلُ الخطابِ المسمّى بـ «مفهوم المُخالفة».

وسألَ عمرُ رضي اللهُ عنه رسولَ اللهِ ﷺ، فأقرّه على فهمِه، ولكنّه بيّنَ له أنَّ ذلكَ غير معتبرٍ هنا؛ لأنَّ اللهَ تصدَّقَ عليكم فأقبلوا صدقتَه.

ولو كانَ فهمُ عمرَ لا يصحُّ لما أقرَّه الرّسولُ ﷺ ابتداءً، ثمَّ وجهه هذا التوجيه، ولقد قيلَ: التوجيه فرع القَبولِ.

ب- عن جابرٍ عن أُم مبشر رضي اللهُ عنهما أنّها سمعتْ النَّبيَّ يَقولُ عندَ حفصةَ: «لا يَدخلَ أحدٌ النارَ إن شاءَ اللهُ من أصحابِ الشجرةِ الّذينَ بايعوا تحتَها».

قالت: بلى يا رسولَ اللهِ، فانتهرها.

فقالت حفصةُ: ﴿وإن مِنكم إلّا وارِدُها﴾ [مريم: ٧١].

فقالَ النبيُّ ﷺ: «قد قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ننجي الّذينَ اتقوا ونذرُ الظالمينَ فيها جثيًّا﴾ [مريم: ٧٢]»[٣].

لقد فهمت أمُّ المؤمنينَ حفصةُ رضي اللهُ عنها أنَّ الورودَ لجميعِ النّاسِ، وأنَّه بمعنى الدُّخولِ، فأزالَ رسولُ اللهِ ﷺ إشكالَها بتمامِ الآيةِ ﴿ثُمَّ نُنجي الّذينَ اتقوا﴾ [مريم: ٧٢].

فرسولُ اللهِ ﷺ أقرّها على فهمِها ابتداءً، ثمَّ وضّحَ لها أنَّ الدخولَ المنفيَّ غيرُ الورودِ المُثبتِ، وأنَّ الأوّلَ خاصٌّ بالصالحينَ المُتقينَ، والمرادُ به نفيُ العذابِ فهم يَمرُّونَ منها إلى الجنّةِ دونَ أن يمسَّهم سوءٌ وعذابٌ، وباقي النّاسِ على خلافِ ذلكَ.

(١) أخرجه مسلمٌ (٥ / ١٩٦ - نووي).
(٢) انظر «الإصابة في تمييزِ الصَّحابةِ» (٣ / ١٦٨).
(٣) أخرجه مسلمٌ (٢٤٩٦).

فثبتَ ولله الحمدُ والمِنّةُ أنَّ دليلَ الخطابِ حجّةٌ يُعتمدُ عليه، ويعوّلُ في الفهمِ إليه.

ناهيكَ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ويتبعُ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ﴾ ليسَ دليلَ خطابٍ، وإنَّما هو احتجاجٌ بتقسيمٍ عقلي؛ لأنَّه ليسَ بينَ اتباعِ سبيلِ المؤمنينَ واتباع غير سبيلِهم قسم ثالثٌ.

فإذا حرَّمَ اللهُ جلَّ جلاله اتباعَ غيرِ سبيلِهم، وجبَ اتباعُ سبيلِهم، وهذا واضحٌ لا يشتبه.

فإن قيلَ: فإنَّ بينَ القسمينَ قسماً ثالثاً؛ وهو عدمُ الاتباعِ أصلاً.

قلتُ: هذا من أوهنِ ما نطقت به العقولُ؛ لأنَّ عدمَ الاتباعِ أصلاً هو اتباعٌ لسبيلِ غيرِهم قولاً واحداً؛ لقولِه تعالى: ﴿فماذا بعدَ الحقِ إلّا الضلالُ فأنّى تُصرفونَ﴾ [يونس: ٣٢]، فثبتَ أنّهما قسمان لا ثالثَ لهما.

فإن قيلَ: لا نسلّمُ أنَّ اتباعَ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ موجبٌ لهذا الوعيدِ بل هو مع مشاقّةِ الرَّسولِ ﷺ، فلا يَلزمُ حرمةُ اتباع غير سبيلِ المؤمنَ مطلقاً بل إذا كان مع المُشاقّةِ.

قلتُ: معلومٌ أنَّ المشاقّةَ محرمةٌ بانفرادِها، مستقلّةٌ بنفسِها، لإيجابِ الوعيدِ عليها، كما قالَ تعالى: ﴿ومن يُشاققُ اللهَ ورسولَه فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

فدلَّ أنَّ الوعيدَ على كلٍّ منهما بانفرادِه، وأنَّ هذا الوصفَ يُوجبُ الوعيدَ بمفردِه، ويدلُّ على ذلكَ أُمورٌ منها:

أ- أنَّ اتّباعَ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ لو لم يَكن مُحرَّماً بانفرادِه، لم يُحرَّم مع المُشاقّةِ كسائرِ المناجاةِ.

ب- أنَّ اتباعَ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ لو لم يدخلْ بانفرادِه في الوعيدِ، لكانَ لغواً لا فائدةَ من ذكرِه، فثبتَ أنَّ عطفَه علّةٌ مستقلّةٌ كالأوّلِ.

فإن قيلَ: لا نسلّمُ أنَّ الوعيدَ لمن اتبعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ مطلقاً بل بعدَ ما

تبيّنَ له الهدى، لأنه ذَكَرَ مشاقّةَ الرّسولِ ﷺ وشرطَ فيها تَبيُّنَ الهدى، ثمّ عطفَ عليها اتباعَ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ، فيجبُ أن يَكونَ تبيُّنُ الهدى شرطاً في الوعيدِ على اتباعِ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ.

قلتُ: قولُه تعالى: ﴿**ويتبع غيرَ سبيلِ المؤمنينَ**﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿**ومن يُشاققِ الرّسولَ من بعدِ ما تبيّنَ له الهدى**﴾ فَلا يَكونُ قيدُ الأوّلِ شرطَ الثاني، وإنّما العطفُ لمطلقِ الجمعِ والمشاركةِ في الحكمِ، وهو قولُه تعالى: ﴿**نولّه ما تولّى ونصله جهنّمَ وساءت مصيراً**﴾، فدلَّ على أنَّ كلا الوصفينِ يوجبُ الوعيدَ بانفرادِه.

● ويدلُّ عليه ما يأتي:

أ- أنَّ تَبيُّنَ الهدى شرطٌ في مشاقّةِ الرّسولِ ﷺ؛ لأنَّ من جهلَ هدى رسولِ اللهِ ﷺ لا يُوصفُ بالمشاقّةِ، أمّا اتباعُ سبيلِ المؤمنينَ فهو هدى في نفسِه.

ب - أنَّ الآيةَ خرجت مخرجَ التعظيمِ والتبجيل للمؤمنينَ، فلو كانَ اتباعُ سبيلِهم مشروطاً بتبيُّنِ الهدى لم يَكن اتباعُ سبيلِهم لأجلِ أنّه سبيلُهم بل لتبيُّنِ الهدى، وعندَئذٍ فإنَّ اتباعَ سبيلِهم لا فائدةَ منه.

وبهذا تبيّنَ أنَّ اتباعَ سبيلِ المؤمنينَ منجاةٌ، فثبتَ أنَّ فهمَ الصحابةِ للدينِ حجّةٌ على غيرِهم، فمن حادَّ عنه فقد ابتغى عَوَجاً، وسلكَ مكاناً حرجاً، فحسبُه جهنّمُ وساءت مستقرّاً ومُقاماً ومصيراً، هذا هو الحقُّ فاعتصم به، ودعني من بُنَيّاتِ الطريقِ، يوضحه:

□ **السابع** - قالَ تعالى: ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراطٍ مُستقيم**﴾ [آل عمران: ١٠١].

والصحابةُ رضي اللهُ عنهم معتصمونَ باللهِ؛ لأنَّ اللهَ وليُّ من اعتصمَ به لقولِه تعالى: ﴿**واعتصموا باللهِ هو مولاكم فنعمَ المولى ونعمُ النّصيرُ**﴾ [الحج: ٧٨].

ومعلومٌ كمال تولي اللهِ لهم ونصره إيّاهم أتمَّ نصرةٍ وأعظمَها، ممّا يدلُّ أنّهم معتصمونَ باللهِ، فهم مهديّونَ بشهادةِ اللهِ، واتباعُ المَهْدي واجبٌ شرعاً وعقلاً وفطرةً، ولذلكَ جعلَهم اللهُ أئمةً للمتقينَ يَهدونَ بأمرِ اللهِ؛ بما صَبروا وكانوا يوقنون، يوضحه:

□ **الثامن** - قال تعالى: ﴿**واجعلنا للمتقينَ إماماً**﴾ [الفرقان: ٧٤].

فكلُّ تقيٍّ يأتمُّ بهم، والتقوى واجبةٌ صرّحَ اللهُ بذلكَ في آياتٍ كثيرةٍ يَصعبُ حصرُها في هذا المقامِ، فعُلِمَ أنَّ الائتمامَ بهم واجبٌ، والعنودَ عن سبيلِهم مظنّةُ الفتنةِ والمحنّةِ.

□ **التاسع** - قال تعالى: ﴿**وجعلنا منهم أئمةً يَهدونَ بأمرنا لمّا صَبروا وكانوا بآياتِنا يُوقنونَ**﴾ [السجدة: ٢٤].

هذا الوصفُ وردَ في أصحابِ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ فأخبرَ المولى الحقُّ جلَّ جلالُه أنّه جعلَهم أئمّةً يأتمُّ بهم مَن بعدَهم لصبرِهم ويقينِهم، إذ «بالصبرِ واليقينِ تنالُ الإمامةُ في الدينِ».

ومعلومٌ أنَّ أصحابَ محمدٍ ﷺ أحقُّ وأولى بهذا الوصفِ من أصحابِ موسى، فهم أكملُ يَقيناً، وأعظمُ صبراً من جميع الأمم؛ فهم أولى بمنصبِ الإمامةِ، وهذا ثابتٌ بشهادةِ اللهِ لهم وثناءِ رسولِ اللهِ ﷺ عَليهم، فلذلكَ فهم أعلمُ هذه الأمةِ؛ فوجبَ الرُّجوعُ إلى فتاويهم وأقوالِهم، والتقيّدُ بفهمِهم للكتابِ والسنّةِ؛ حِسّاً وعقلاً وشرعاً، وباللهِ التوفيقُ.

□ **العاشر** - عن أبي موسى الأشعريّ رضي اللهُ عنه قالَ:

صلّينا المغربَ مع رسولِ اللهِ ﷺ ثمَّ قلنا: لو جلسنا حتّى نصلي معه العشاءَ، فجلسنا، فخرجَ علينا فقال: «ما زلتم هنا؟».

قلنا: يا رسولَ اللهِ صلينا معكَ، ثمَ قُلنا: نجلسُ حتّى نصليَ معكَ العشاءَ.

قالَ: «أحسنتم أو أصبتم».

قال: ثمَّ رفعَ رأسَه للسماءِ، وكانَ كثيراً ما يرفع رأسَه إلى السماءِ فقالَ:

«النجومُ أمنةٌ للسماءِ، فإذا ذهبتُ النجومُ أتي السماءَ أمرُها، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي فإذ ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدونَ، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهبَ أصحابيَ أتي أمتي ما يوعدونَ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦ / ٨٢ - نووي).

لقد جعلَ رسولُ اللهِ ﷺ نسبةَ أصحابِه رضي اللهُ عنهم إلى من بعدهم في الأمةِ الإسلاميةِ كنسبته لأصحابِه، وكنسبةِ النجومِ إلى السّماء.

ومن المعلومِ أنَّ هذا التشبيهَ النبويَّ يُعطى في وُجوبِ اتباعِ فهمِ الصحابةِ للدين، نَظيرِ رُجوعِ الأمّةِ إلى نبيِّها ﷺ فإنّه ﷺ المبيّنُ للقرآنِ، وأصحابه رضوانُ اللهِ عليهم ناقلوا بيانِه للأمةِ.

وكذلكَ رسولُ اللهِ معصومٌ لا ينطقُ عن الهوى، وإنَّما يصدرُ عنه الرشادُ والهدى، وأصحابُه عدولٌ لا ينطقونَ إلّا صدقاً، ولا يَعملونَ إلّا حقّاً.

وكذلكَ النجومُ جعلَها اللهُ رُجوماً للشياطينَ في استراقِ السَّمع، فقالَ تعالى: **﴿إنَّا زيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكب وحفظاً من كلِّ شيطانٍ مارد لا يسَّمَّعونَ إلى الملإِ الأعلى ويُقذفونَ من كلِّ جانبٍ دُحوراً ولهم عذابٌ واصبٌ إلّا من خَطِفَ الخَطفةَ فأتبعَه شِهابٌ ثاقبٌ﴾** [الصافات: ٦ - ١٠].

وقالَ سبحانَه وتعالى: **﴿ولقد زيّنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجوماً للشياطينَ﴾** [الملك: ٥].

وكذلكَ الصحابة رضي اللهُ عنهم زينةُ هذه الأمةِ كانوا رصداً لتأويلِ الجاهلينَ، وانتحالِ المبطلينَ، وتحريفِ الغالينَ؛ الَّذينَ جعلوا القرآنَ عضين، واتبعوا أهواءَهم، فتفرَّقوا ذاتَ اليمينِ وذات الشمالِ، فكانوا عزين.

وكذلكَ فإنَّ النجومَ منارٌ لأهلِ الأرضِ، ليهتدوا بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ؛ كما قالَ تعالى: **﴿وعلاماتٍ وبالنجمِ هم يَهتدونَ﴾** [النحل: ١٦].

وقالَ جلَّ شأنه: **﴿وهو الّذي جعلَ لكم النجومَ لتهتَدوا بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ﴾** [الأنعام: ٩٧].

وكذلكَ الصحابةُ يُقتدي بهم للنجاةِ من ظلماتِ الشهواتِ والشبهاتِ، ومن أعرضَ عن فهمِهم فهو في غيّه يتردّى في ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعض إذا أخرجَ يدَه لم يَكد يَراها.

وبفهمِ الصحابةِ نحصنُ الكتابَ السنّةَ من بدعِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ؛ الَّذينَ يَبتغونَ الفتنةَ ويَبتغونَ تأويلَها؛ ليفسدوا مرادَ اللهِ ورسولِه، فكانَ فهمُ الصحابةِ

حرزاً من الشرِّ وأسبابِه، ولو كانَ فهمهم لا يحتجُّ به لكانَ فهمُ مَن بعدَهم أَمَنَةً للصحابةِ وحرزاً لهم، وهذا محالٌ.

□ الحادي عشر - والأحاديثُ في إيجابِ محبتِهم وذمِ من أبغضَهم - وكمال محبتِهم في اقتفاءِ أثرِهم، والسيرِ على هداهم في فهمِ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ - كثيرةٌ.

ومن هذه الأحاديثِ قولُه ﷺ: «لا تسبّوا أَصحابي فلو أنَّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهباً ما بَلَغَ مدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»[(١)].

وما ذاكَ من جهةِ كونِهم رأوه أو جاوروه أو حاوروه فقط، فإنَّ ذلكَ لا مريةَ فيه، وإنَّما هو لشدّةِ متابعتهم له، وأخذِهم العملَ على سنته كان بهذه المثابةِ، فحقيقٌ أن يُتَّخَذَ فَهْمُهم سَبيلاً، وتجعلَ أقوالُهم قبلةً يولي المسلمُ وجهه شطرَها ولا يلتفتُ لغيرِها، وذلكَ واضحٌ في سببِ ورودِ الحديثِ حيثُ أنَّ الخطابَ لخالدِ بنِ الوليدِ رضي اللهُ عنه وهو صحابيٌّ[(٢)]، فإذا كانَ مدُّ بعضِ الصحابةِ أو نصيفه أفضلَ عندَ اللهِ من أُحُدٍ، وذلكَ لفضلِهم وسبقهم فلا شكَّ أنَّ بينَ الصحابةِ ومن بعدَهم مفاوزَ، فإذا كان الأمرُ بهذهِ المنزلةِ فكيفَ يُجيزُ ذو مسكةِ عقلٍ أن لا يَكونَ فهمُهم لدينِ اللهِ طريقَ رشدٍ يهدي للتي هي أقومُ؟

□ الثاني عشر - ومنها قولُه ﷺ: «عليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ عضّوا عليها بالنواجذِ»[(٣)].

وجه دلالتِه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرَ أُمّتَه عند الاختلافِ بالتمسكِ بسنته بفهم

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧ / ٢١ - الفتح)، ومسلم (١٦ / ٩٢ - ٩٣ نووي). من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريّ رضي اللهُ عنه.

• وقد وقعَ عندَ مسلمٍ (١٦ / ٩٢- نووي) من حديثِ أبي هُريرةَ رضي اللهُ عنه وهو وهمٌ؛ كمّا بيّنه الحافظان البيهقيُّ في «المدخلِ إلى السننِ» (ص ١١٣)، وابنُ حجرٍ في «فتح الباري» (٧ / ١٣٥).

ومن شاءَ المزيدَ فلينظر: «جزء محمد بن عاصم عن شيوخِه» بتحقيقي (١٣).

(٢) وانظر: «البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف» لابن حمزة الحسينيّ (٣ / ٣٠٤ - ٣٠٥).

(٣) مضى تخريجه (ص ١١١).

صحابتِهِ كما سبقَ بيانُه.

ومن النكتِ اللَّطيفةِ في هذا الحديثِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعدَ أن ذكرَ سنتَه وسنةَ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المهديينَ قالَ: «عضّوا عليها» ولم يَقل: «عضّوا عليهما» للدلالةِ على أنَّ سنتَه وسنةَ الخُلفاءِ الرّاشدينَ منهجٌ واحدٌ، ولن يَكونَ ذلكَ إلّا بهذا الفهمِ الصحيحِ الصريحِ وهو: **التمسكُ بسنتِه ﷺ بفهمِ صحابتِه رضي اللهُ عنهم**.

□ **الثالث عشر** - ومنها قولُه ﷺ في وصفِ منهجِ الفرقةِ الناجيةِ والطائفةِ المنصورةِ: «ما أنا عليه اليومَ وأصحابي»[١].

فإن قيلَ: ليسَ من شكٍ أنَّ فهمَّ الرَّسول ﷺ وفهمَ أصحابه من بعدِه هو المنهجُ الّذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه، لكن ما الدَّليلُ على أنَّ المنهجَ السَّلفيَّ هو فهمُ الرَّسولِ ﷺ وأصحابه؟

قلتُ: الجوابُ من وجهينِ:

أ- إنَّ المفاهيمَ المذكورةَ آنفاً متأخّرةٌ عن عهدِ النُّبوّةِ والخلافةِ الرَّاشدةِ، ولا يُنسبُ السَّابقُ للاحقِّ بل العكس، فتبيّنَ أنَّ الطائفةَ الَّتي لم تسلك هذه السُّبلَ، ولم تتبع هذه الطُّرق، هي الباقيةُ على الأصلِ.

ب- لسنا نجدُ في فرقِ الأُمّةِ من هم على موافقةِ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم غيرَ أهلِ السنّةِ والجماعةِ من أتباعِ السَّلفِ الصالحِ أهلِ الحديثِ، دونَ سائرِ الفرقِ:

فأمَّا **المعتزلةُ**؛ فكيفَ يَكونونَ موافقينَ للصَّحابةِ وقد طعنَ رؤوسُهم في جِلّةِ الصحابةِ، وأسقطوا عدالتَهم، ونسبوهم إلى الضلالِ كواصلِ بنِ عطاءٍ الَّذي قالَ: «لو شهدَ عليٌّ، وطلحةُ، والزُّبيرُ على باقةِ بَقلٍ لم أحكم بشهادَتِهم»[٢].

وأمّا **الخوارجُ**؛ فقد مَرقوا من الدينِ، وشذّوا عن جماعةِ المسلمينَ؛ فمن ضروريّاتِ مذهبِهم أن يَكفّروا عليّاً وابنيه، وابنُ عبّاسٍ، وعثمان، وطلحة،

(١) مضى تخريجُه.

(٢) انظر «الفرق بين الفرق» (ص ١١٩ - ١٢٠).

وعائشة، ومعاوية، ولا يَكونُ على سمتِ الصحابةِ من اتَّخذَهم غَرضاً وكفَّرهم.

وأمَّا **الصوفيّةُ**؛ فَسَخِروا من ميراثِ الأنبياءِ، واسقطوا نَقَلَةَ الكتابِ السنّةِ، ووصفوهم بالأمواتِ، فقاله كبيرُهم: «أنتم تأخذونَ عِلمَكم؛ ميّت عن ميّت، ونحنُ نأخذُ علمنا عن الحيِّ الّذي لا يموت» ولذلك يقولون -فضّت أفواههم، معارضين إسنادَ أهل الحديث-: «حدَّثني قلبي عن ربّي».

وأمَّا **الشيعةُ**؛ فقد زعمت أنَّ الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم ارتدّوا بعدَ النبيِّ ﷺ سوى نفرٍ قَليلٍ.

فهذا الكشيُّ - أحدُ أئمتِهم - يَروي في «رجالِه» (ص ١٢ و ١٣) عن أبي جعفرٍ أنّه قالَ:

«كانَ الناسُ أهلَ ردّة بعدَ النبيِّ إلّا ثلاثة».

فقلتُ: من الثلاثةُ؟

فقال: «المقدادُ بن الأسودِ، وأبو ذرٍّ الغِفاريّ، وسلمان الفارسيّ».

ويروي (ص ١٣) عن أبي جعفرٍ أنّه قال:

«المهاجرونَ والأنصارُ ذهبوا إلّا ثلاثة»[(١)].

وها هو الخُمينيُّ - آيتهم في هذا العصرِ - يَطعنُ ويلعنُ الشيخين أبا بكرٍ وعمرَ في كتابِه: «كشف الأسرارِ» (ص ١٣١) فيقولُ: «فإنَّ الشيخينِ... ومن هنا نَجدُ أنفسنا مضطرّينَ على إيرادِ شواهدَ من مُخالفتِهما الصريحةِ للقرآنِ لنثبتَ بأنّهما كانا يُخالفانِ ذلكَ».

وقالَ (ص ١٣٧): «... وأغمضَ عينيه[(٢)]، وفي أُذنيه كلماتُ ابنِ الخطابِ القائمة على الفرية، والنابعة من أعمالِ الكفرِ والزندقةِ، والمُخالفةِ لآياتٍ وردَ ذكرها في القرآنِ الكريمِ».

وأمّا **المرجئةُ**؛ فيَزعمونَ: أنَّ إيمانَ المنافقين الّذينَ مردوا على النفاقِ كإيمانِ

(١) وانظر «الكافي» للكليني (١١٥).
(٢) أي النبيّ ﷺ.

السابقينَ الأولينَ من المهاجرينَ والأنصارِ.

فكيفَ يَكونُ هؤلاءِ موافقينَ للصحابةِ رضي اللهُ عنهم وهم:

أ- يَكفرونَ خيارَهم.

ب- لا يَقبلونَ شيئاً ممّا رووا عن رسولِ اللهِ ﷺ في العقائدِ والأحكامِ.

جـ- يتبعونَ نفاياتِ حضارةِ الرومانِ وفلسفةِ اليونانِ.

وبالجملةِ؛ فهذه الفرقُ تُريدُ إبطالَ شهودِنا على الكتابِ والسّنّةِ وجرحَهم؛ فهم بالجرحِ أولى، وهم زنادقة.

وبذلكَ يتبيَّن أنَّ الفهمَ السَّلفيَّ هو منهجُ الفرقةِ النّاجيةِ والطائفةِ المنصورةِ في الفهمِ والتَّلقِّي والاستدلال.

والمقتدونَ بالصحابةِ رضي اللهُ عنهم مَن يعملُ بالروايةِ الصحيحةِ الثابتةِ في أحكامِهم وسيرِهم وفهمهم، وذلكَ سنةُ أهلِ الحديثِ دونَ ذوي البدعِ والأهواءِ، فصحَّ بصحةِ ما عرضنا، وقوة إذ ذكرنا تحقيق نجاتِهم لحكمِ الرّسولِ ﷺ بنجاةِ المقتدينَ بسنته وسنةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ المهديينَ من بعدِه.



احتجاجُ الصحابةِ والتابعينَ بفهم السلف ومنهجهم

١ - عبدالله بن مسعودٍ رضي اللهُ عنه:

عن عمروِ بن سلمة: كنّا جُلوساً على بابِ عبدِالله بنِ مسعود قبلَ الغداةِ، فإذا خرجَ مشينا معه إلى المسجدِ، فجاءَنا أبو موسى الأشعريّ، فقالَ: أَخرج إليكم أبو عبدِالرَّحمنِ بعدُ؟

قلنا: لا.

فجلسَ معنا حتّى خرجَ، فلمّا خرجَ قمنا إليه جَميعاً، فقالَ له أبو موسى: يا أبا عبدِالرَّحمنِ إنّي رأيتُ في المسجدِ آنفاً أمراً أنكرته، ولم أرَ - والحمدُ للهِ - إلّا خيراً.

قالَ: فما هو؟

قال: إن عشتَ فستراه، رأيتُ في المسجدِ قوماً حِلَقاً جلوساً ينتظرونَ الصلاةَ، في كلِّ حلقةٍ رجلٌ، وفي أيديهم حصى، فيقولُ: كبّروا مئةً فيكبّرونَ مئةً، فيقولُ: هلّلوا مئة، فيهلّلونَ مئةً، ويقولُ: سبّحوا مئةً، فيسبحونَ مئةً.

قالَ: فماذا قلتَ لهم؟

قالَ: ما قلتُ لهم شيئاً انتظارَ أمرِكَ.

قالَ: أفلا أمرتَهم أن يعدّوا سيئاتِهم[1]، وضمنتُ لهم أن لا يَضيعَ من حسناتِهم؟!

ثمّ مضى، ومضينا معه، حتّى أتى حلقةً من تلك الحِلَقِ، فوقفَ عليهم، فقالَ: ما هذا الّذي أراكم تصنعونَ؟!

قالوا: يا أبا عبدِالرحمنِ حصى نعدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتسبيحَ.

---

(١) ليستغفروا منها، فمن أحصى سيئاتِه كانَ داعياً له؛ لأن يَتوبَ إلى اللهِ.

قالَ: فعدّوا سيئاتِكم، فأنا ضامنٌ أن لا يَضيعَ من حسناتِكم شيءٌ، ويحكم يا أُمةَ محمدٍ ما أسرعَ هلكتكم **هؤلاءِ صحابة نبيّكم ﷺ متوافرونَ**، وهذه ثيابه لم تبل، وأنيتُه لم تُكسر، والّذي نفسي بيده؛ إنّكم لعلى ملّةٍ أهدى من ملّةِ محمدٍ، أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا: واللهِ يا أَبا عبدِالرّحمنِ ما أردنا إلّا الخير.

قالَ: وكم من مُريدٍ للخير لن يُصيبَه؛ إنَّ رسولَ اللهِ حدَّثنا: «إنَّ قوماً يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوزُ تراقيَهم»[١].

وأيمُ الله؛ ما أدري؛ لعلَّ أكثرَهم منكم، ثمَّ تولّى عنهم.

فقال عمرُو بن سَلَمةَ: رأينا عامةَ أُولئكَ الحِلَقِ يُطاعنونا يومَ النهروانِ مع الخوارجِ[٢].

فقد احتجَّ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه على أفراخِ الخوارجِ بوجودِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بينَهم، وبأنّهم لم يَفعلوا فعلتَهم، فلو كانت خيراً كما يَزعمونَ لسبقَهم أصحابُ محمدٍ ﷺ إليه، ولمّا لم يَفعلوا ذلكَ فهو ضلالةٌ.

فلو لم يَكن منهجُ الصحابةِ رضي الله عنهم حجّةً على من بعدَهم، لقالوا لعبدِاللهِ بنِ مسعودٍ: أنتم رجالٌ ونحنُ رجالٌ.

٢- وعنه قالَ:

«من كانَ متأسّياً **فليتأسَّ بأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ**، فإنّهم كانوا أبرَّ هذه الأمةِ قُلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، وأقومَها هدياً، وأحسنَها حالاً، قومٌ اختارَهم اللهُ لصحبةِ نبيّهِ، وإقامةِ دينِهِ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارِهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم».

---

(١) وله طريقٌ آخرُ عن عبدالله بنِ مسعودٍ - رضي اللهُ عنه -.
أخرجه أحمدُ (١ / ٤٠٤) بإسنادٍ جيد.
وكذلكَ وردَ هذا الحديثُ عن جمعٍ من الصحابةِ - رضي اللهُ عنهم -.

(٢) وانظر تخريج وفقه هذه المناظرةِ في كتابي: «البدعة وأثرها السّيّئ في الأمّةِ» (ص ٢٩- ٣٣)، الطبعة الثالثة.

٣- عبدالله بن عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما.

لمّا خرجت الحروريّة[١] اعتزلوا في دار، وكانوا ستةَ آلافٍ، وأجمعوا على أنْ يَخرجوا على عليّ، فكانَ لا يَزالُ يَجيءُ إنسانٌ، فيقولُ: يا أَميرَ المؤمنينَ إنّ القومَ خارجونَ عليك.

فيقولُ: دعوهم؛ فإنّي لا أُقاتلُهم حتّى يُقاتلوني، وسوفَ يفعلون[٢].

فلمّا كانَ ذاتَ يومٍ؛ أتيتَه قبلَ صلاةِ الظهرِ، فقلتُ لعليٍّ: يا أميرَ المؤمنينَ أبرد بالصلاةِ؛ لعلي أُكلّمُ هؤلاءِ القومَ.

قالَ: فإنّي أخافهم عليكَ.

قلتُ: كلّا، وكنتُ رجلاً حسنَ الخُلُقِ؛ لا أُؤذي أحداً.

فأذنَ لي، فلبست حُلّةً من أحسنِ ما يَكونُ من اليَمَنِ، وترجّلتُ، ودخلتُ عليهم في دارٍ نصف النهار وهم يأكلونَ، فدخلتُ على قومٍ لم أرَ قطُّ أشدَّ منهم اجتهاداً، جباههم قَرِحةٌ من السُّجودِ، وأياديهم كأنّها ثَفنُ الإبلِ، وعليهم قُمُصٌ مرحضة، مشمّرينَ، مسهمة وجوههم.

فسلّمتُ عليهم، فقالوا: مرحباً بكَ يا ابنَ عبّاسٍ وما هذه الحلّة عليكَ؟!

قلتُ: ما تَعيبونَ منّي؟ فقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ أحسنَ ما يَكونُ في ثيابِ اليمنيّةِ، ثمّ قرأتُ هذه الآية: ﴿قُل من حرَّمَ زينةَ اللهِ الّتي أخرجَ لعبادِهِ والطيباتِ من الرِّزقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فقالوا: فما جاءَ بكَ؟

قلتُ لهم: أتيتُكم من عندِ أصحابِ النبيِّ ﷺ المهاجرينَ والأنصارِ، ومن عندِ ابنِ عمِّ النبيِّ ﷺ وصهرِه وعليهم نزلَ القرآنُ؛ فهم أعلمُ بتأويلِه منكم، وليسَ

---

(١) نسبة إلى حَروراءِ - بفتحتين وسكونِ الواو وراء أُخرى وألف ممدودة -، وهي قرية على بعد ميلين من الكوفة، كانَ أوّلُ اجتماعِ الخوارجِ الّذينَ خالفوا عليَّ بنَ أبي طالبٍ بها؛ فنسبوا إليها. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٢٤٥)، و«اللُّباب في تهذيبِ الأنساب» (١/ ٣٥٩).

(٢) تصديقاً بما أخبرَ به رسولُ اللهِ ﷺ من شأنِهم.

فيكم منهم أحدٌ؛ لأُبلِّغَكم ما يَقولونَ، وأبلِّغهم ما تقولونَ.

فقالت طائفةٌ منهم لا تُخاصموا قريشاً؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقولُ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

فانتحى لي نفرٌ منهم، فقالَ: اثنان أو ثلاثة: لَنُكَلِّمنّه.

قلتُ: هاتوا؛ ما نقمتكم على أصحابِ رسولِ الله ﷺ وابنِ عمّهِ؟

قالوا: ثلاث.

قلتُ: ما هنَّ؟

قالوا: أمّا إحداهنَّ؛ فإنَّه حكَّمَ الرّجالَ في أمرِ اللهِ، وقالَ اللهُ: ﴿إِنِ الحُكْمُ إلّا للهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠ و٦٧].

قلتُ: هذه واحدةٌ.

قالوا: وأمّا الثانيةُ؛ فإنّه قاتلَ ولم يَسبِ ولم يَغنم؛ إن كانوا كفّاراً لقد حلَّ سبيهم، ولئن كانوا مؤمنينَ ما حلَّ سبيهم ولا قتالُهم[1].

قلتُ: هذه ثنتانِ، فما الثالثةُ؟.

قالَوا: محى نفسَه من أميرِ المؤمنينَ، فإن لم يَكن أميرَ المؤمنينَ؛ فهو أميرُ الكافرينَ.

قلتُ: هل عندَكم شيءٌ غير هذا.

قالوا: حسبُنا هذا.

قلتُ لهم: أرأيتُكم إن قرأتُ عليكم من كتابِ اللهِ جلَّ ثناؤه وسنة نبيّهِ ﷺ ما يُردُّ قولكم؛ أترجعونَ؟

قالوا: نعم.

---

(١) هذا هو الحكمُ في الفئةِ الباغيةِ: لا تُسبى نساؤهم وذراريهم، ولا يقسمُ فيئهم، ولا يُجهزُ على جريحهم، ولا يُتبعُ هاربُهم، ولا يُبدؤونَ بقتالٍ ما لم يَفعلوا.

قلتُ: أمّا قولكم: «حكَّم الرّجالَ في أمرِ اللهِ»؛ فإنّي أقرأُ عليكم في كتابِ اللهِ أن قد صيرَّ اللهُ حكمَه إلى الرّجالِ في ثمنِ ربعِ درهمٍ، فأمرَ اللهُ تباركَ وتعالى أن يُحَكَّموا فيه.

أرأيتَ قولَ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا لا تَقتلوا الصيدَ وأَنتم حُرُم ومن قَتَلَه مِنكُم مُتعمّداً فجزاء مثلُ ما قَتَلَ من النَّعَمِ يَحْكُمُ به ذوا عدلٍ منكم﴾ [المائدة: ٩٥]، وكانَ حُكمُ اللهِ أنّه صيرّه إلى الرّجالِ يَحكمونَ فيه، ولو شاءَ يَحكمُ فيه، فجازَ من حكم الرجال.

أنشدكم باللهِ أحكمُ الرّجالِ في إصلاحِ ذاتِ البينِ وحقنِ دمائهم أفضلُ أو في أرنبٍ؟!

قالوا: بلى؛ بل هذا أفضل.

وفي المرأةِ وزوجها: ﴿وإن خِفتم شقاقَ بينهما فابعثوا حَكَماً مِن أهلِه وحَكَماً مِن أهلِها﴾ [النساء: ٣٥]، فنشدتُكم باللهِ حُكمُ الرجالِ في صلاحِ ذاتِ بينِهم وحقنِ دمائهم أفضلُ من حُكمِهم في بضعِ امرأةٍ؟!

خرجتُ من هذه؟

قالوا: نعم.

قلتُ: وأمّا قولُكم: «قاتلَ ولم يَسبِ ولم يَغنم»؛ أَفتسبُونَ أُمَّكم عائشةَ تستحلونَ منها ما تستحلونَ من غيرِها وهي أُمُّكم؟ فإن قلتم: إنّا نستحلُّ منها ما نستحلُّ من غيرِها؛ فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمِّنا فقد كفرتم: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنينَ مِن أنفسِهم وأزواجُهُ أُمّهاتُهم﴾ [الأحزاب: ٦]. فأنتم بينَ ضلالتينَ، فأتوا بمخرجٍ.

أَفخرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

وأمّا محيُ نفسِه من أميرِ المؤمنينَ؛ فأنا آتيكم بما ترضونَ: إنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ يومَ الحديبيةِ صالحَ المشركين، فقالَ لعليّ: «أُمحُ يا عليُّ اللّهمَّ إنَّكَ تعلمُ أنّي رسولُ اللهِ

واكتب هذا ما صالحَ عليه محمدُ بنُ عبدِاللهِ»[١].

واللهِ لرسول الله ﷺ خيرٌ من عليٍّ، وقد محى نفسَه، ولم يكن محوُه نفسَه ذلكَ محاه من النبوّةِ.

أخرجت من هذه؟

قالوا: نعم.

فرجعَ منهم ألفان، وخرجَ سائرهم، فقتلوا على ضلالتِهم، قتلَهم المهاجرونَ والأنصارُ[٢].

فقد احتجَّ عبدُاللهِ بنُ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما بمنهجِ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم على الخوارجِ، فإنَّ القرآنَ نَزَلَ فيهم فهم أعلمُ بتأويلِه، وهم صحبوا رسولَ اللهِ ﷺ فهم أتبعُ لسبيلِه.

وتوجيه عبدِاللهِ بنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما لشبهِ الخوارجِ، وبيان وجه الحقِّ الأبلج من الباطلِ اللجلجِ، دليلٌ علميٌّ على ما قَدَّمنا من الاحتجاجِ بمنهجِ الصحابةِ رضي اللهُ عنهم.

٤- قالَ الأوزاعيُّ - رحمه اللهُ -:

«اصبر نفسَكَ على السنّةِ، وقف حيثُ وَقَفَ القومُ، وقل بما قالوا، وكفَّ عمّا كفوا عنه، **واسلك سبيلَ سلفكَ الصالح، فإنَّه يَسعكَ ما وسعهم**»[٣].

□□□□□

---

(١) وله شاهدٌ من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ - رضي اللهُ عنه -:
أخرجه البخاريّ (٥ / ٣٠٣ - ٣٠٤ - فتح) ومسلمٌ (١٢ / ١٣٤ - ١٣٨ - نووي).
وشاهدٌ من حديثِ أنسٍ - رضي الله عنه -:
اخرجه مسلمُ (١٢ / ١٣٨ - ١٣٩ - نووي).

(٢) صحيح، وانظر تخريجه في كتابي: «مناظرات السلفِ مع حزبِ إبليسَ وأفراخِ الخلفِ» (ص ٩٥) نشر دار ابن الجوزي - الدمام.

(٣) الآجري في «الشريعة» (ص ٥٨).

فهرس الموضوعات

□□□□□

□ الدرر الأثرية للصف والإخراج □
عمّان - الأردن

يصدر قريباً - إنْ شاء اللّه -

- إنّها سلفيّة العقيدة والمنهج / وقفات مع العسكر في الذّب عن الألباني بتقريظ ابن باز -حفظهما اللّه - بقلم علي بن حسن الحلبي الأثري.

- الانتصار لأهل الحديث (الألباني) - طبعة جديدة مهذّبة ومزيدة بقلم محمّد عُمر بازمول.